كورين شوفالييه

الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر

1541-1510

ترجمة جمال حمادنة

ديوان المطبوعات الجامعية

الثلاثون سنة الأولى
لقيام دولة
مدينة الجزائر

كورين شوفالييه

الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر

1541-1510

ترجمة

جمال حمادنة

ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر : 4.07.3124
رقم ر.د.م.ك.(I.S.B.N.) : 978.9961.0.1032.7
رقم الايداع القانوني : 200/259

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

مقدمة

نذكر كما جرت العادة أن فترة حكم الأتراك لمدينة الجزائر هي فترة مختصرة لعهد دام حوالي ثلاثة قرون كانت خلاله سيادة الأتراك اسمية أكثر منها فعلية والتي تجلت في عدة مظاهر مختلفة:

الظاهرة الأكثر انتشارا في القرنين السابع عشر والثامن عشر هي أن المدينة تأثرت بعادات العثمانيين وفنهم وطريقة حياتهم.

وفي هذه الأثناء بلغت القرصنة ذروتها وانتصر الانكشاريون ضد الرّياس حيث كانوا هم الذين يشكلون الحكومات ويخلعونها دون الأخذ بعين الاعتبار الأوامر القادمة من استانبول.

وكانوا يختارون الدايات من بين الميليشيات القوية التي تدعى"الاوجاك" وغالبا ما كان يتم اغتيال هؤلاء الدايات يوم تنصيبهم من قبل آخرين طامعين في الحكم.
ولم تكن الحالة دائما هكذا.

وأردنا تسليط الضوء على بداية فترة حكم الوصاية على مدينة الجزائر وسنرى فيما بعد كيف تمت ولادة هذه القوة الجديدة التي مهّد لها عروج بارباروس وأكملها من بعده أخوه خير الدين الذي يعتبر الصانع الحقيقي لها.

ويبدو لنا أنه من المهم البحث عن تاريخ مدينة الجزائر تحت حكم الأتراك في الفترة التي لم يكن لهم أي سلطان على المدينة، وفي الفترة التي شهدت التفاف السكان حول رجل ماهر ذكي للمشاركة في تكوين دولة مدينة الجزائر.

وخلال 30 سنة التي تشكل موضوع دراستنا والتي تمتد بين (1510-1541) انتقلت المدينة تحت حماية العثمانيين لأسباب سياسية واستراتيجية قصد التصدي لخطر هجومات الإسبان التي تهدد المدينة باستمرار ولكن عروج ومرافقيه هم الذين يقودون مصير المدينة.

حيث اكتفى الأتراك ببعض الانكشاريين الذين أرسلتهم استانبول لحفظ الأمن والنظام وجمع الضرائب، ولا عمل لهم سوى ذلك.

ولكن بعد موت صالح رايس سنة1556 حدثت أول مواجهة بينهم وبين طائفة الرايس. وتوجب عليهم الإنتظار حتى سنة 1558 للحصول على اذن يسمح لهم بالصعود إلى البواخر والمساهمة في عمليات القرصنة.

والوثائق التي تعالج الثلاثين سنة الأولى لعهد الدولة الجديدة غير متوفرة ونادرة الوجود.

وقد حاولنا العودة إلى العصور السابقة لشرح بعض المظاهر التي ميزت مدينة الجزائر قبل القرن السادس عشر.

وكتابات الرحالة السابقين مثل البكري وابن حوقل والإدريسي عن مدينة الجزائر تعتبر قليلة غير كافية.

وساعدنا كل من ماس لاتري، برونشويغ ودهينا على فهم حالة المغرب وعلاقاتها السياسية ومعاهداتها التجارية.

وفي القرن السادس عشر فإن الوثيقتين الوحيدتين اللتين اعتمدنا عليهما هما غزوات خير الدين التي ترجمها (فونيور دوبارادي) ونقحها ساندر رانخ ودنيس. وأعمال فراديغو هاييد.

فالوثيقة الأولى هي وثيقة تاريخية كتبت بأمر من بارباروس والتي هي عبارة عن مدح وإظهار قيمة الجانب التركي، أما هاييدو الراهب

الإسباني فقد كان في فترة من الفترات عبدا في مدينة الجزائر، حيث نعتبر أن جزءا من أعماله يعبّر بوضوح عن مدى حقده ورغبته في الانتقام والأخذ بالثأر. ومؤلفاته عن طوبوغرافيا وتاريخ ملوك مدينة الجزائر تعطينا معلومات غير كافية عن المدينة وسكانها، وهناك وثائق أخرى لم يتم نشرها والتي لها طابع التشهير والترويج حيث تحتوي على معلومات قيمة وتتمثل في الرسائل الإسبانية المحفوظة في أرشيف سيمونكاس. وفي الوقت المعاصر فإن الأعمال السابقة ليس لها طبيعة ومميزات الوثائق الرسمية ويمكن أن تكون هذه الأعمال متشائمة جدا إذا ما أجبرتها الأحداث على ذلك وهي رغم ذلك تتمتع بشهرة كبيرة.

كما تصفحنا كتابات الأسرى مثل سيرفونتيس ودارانديو رغم أن أسرهما كان في وقت متأخر (1574 بالنسبة إلى سيرفونتيس، 1640 بالنسبة إلى داراندو. اضافة إلى الأعمال الدقيقة الأخرى فإنهم يفسرون لنا حالة من التضارب النفسي وغالبا ما يتناقض الجو العام مع مايتوفر لدينا من أفكار استقيناها من تلك الفترة.

وكان الفضل للعلماء الذين أتو إلى مدينة الجزائر ابتداء من عام 1830 مثل بيربروغر وديلفوكس وغرامونت كان لهم الفضل في نقل بقايا العادات والتقاليد الشفهية، التي استطاعوا الحصول عليها وكذلك وصف الآثار التذكارية التي كانت موجودة آنذاك.

ويعطينا كلاين، ديلفوكس وكولين معلومات أولية عن طريق دراسة المخطوطات والبناءات التي اختفت منذ زمن بعيد. ليسبيس وأوديل شرحوا حياة القدماء بواسطة طوبوغرافيا المدينة، وصناعاتها التقليدية ولاحظنا خلو هذه الكتابات من الموضوعية التي تكون في بعض الأحيان مشوشة والتي تعكس روح الاستعمار الخاصة في تلك الفترة.

ولكن ألا يوجد شيء نستفيد منه؟ وهل نهمل عمل عدة أجيال من العلماء الذين لم يكونوا كلهم سيئين أو أغبياء؟(1).

كما بحثنا أيضا في الأعمال المخصصة للامبراطورية العثمانية، وحصلنا على معلومات خاصة بحكم الوصاية على مدينة الجزائر من خلال فون هامار وكلوت. كما أن تراجعهم بالنسبة إلى تاريخ مدينة الجزائر يبين لنا سمة النزاهة في ذلك.

وأخيرا فإن هذا الموضوع يهم الباحثين الجدد أكثر فأكثر، واستفدنا خلال ذلك من بونو، بلهاميس بيرك، بوروبيا، وخاصة برودويل في مؤلفه الهام البحر المتوسط والشعوب المتوسطية في زمن فيليب الثاني والذي يعتبر منبعا هاما للمعلومات.

الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر
(1541-1510)
ملاحظات لخدمة تاريخ مدينة الجزائر
في القرن السادس عشر

تمهيد:

في أكتوبر سنة 1493، وطأت أقدام آخر ملوك غرناطة محمد الثاني عشر والذي يطلق عليه المسيحيون اسم بو عبديل، أرض ايبيريا للمرة الأخيرة قبل أن يلتحق بمدينة فاس وحسب أمه عائشة فإنه "بكى بكاء النساء على مملكته التي لم يستطع المحافظة عليها".

ولم تصل فترة حكمه إلى المرحلة النهائية حتى يبدأ في الهجرة ثانية نحو الأرض المغربية لتي استقبلت المسلمين المضطهدين.
حيث تنازع العديد من الذين سبقوهم في شمال افريقيا بواسطة المرينيين في الغرب، الزيانيين في تلمسان والحفصيين في الشرق.

ان مدينة ساحلية متواضعة من بين المدن الأخرى الكثيرة ستستقبل عددا كبيرا من المهاجرين.
وتأسست مدينة الجزائر(جزائر بني مزغنة) في النصف الثاني من القرن العاشر من طرف الأمير زيري بن بلكين على أنقاض المدينة الرومانية القديمة المسماة ايكوزيوم، وفي نهاية القرن الرابع عشر أصبحت مدينة مزدهرة ومستقلة.
واستمر النزاع عليها طويلا بين امبرطورية الزيانيين وامبراطورية الحفصيين فمرة تخضع للزيانيين وأخرى للحفصيين حتى جاء الثعالبة واستولوا عليها (والثعالبة هم من فرع الماكيل المنتشرة في سهل المتيجة بموافقة بني مليكش وذلك في القرن الحادي عشر تقريبا(1) حيث أخذت استقلالا نسبيا ثم أنشأ جمهورية صغيرة يحكمها فئة برجوازية قليلة تدعى الاوليغارش.

بالنسبة لهذه المدينة التي لم يكن لها أهمية، فإن سقوط مملكة النازريد سيكون لها الخطوة الأولى لنهاية حقب طويلة من الأحداث المتتابعة والتي ستكون أول مرحلة لجعل هذه المدينة ذات قيمة على مستوى منطقة البحر المتوسط وتغيير حالتها من مدينة إلى دولة إقليمية ذات هيبة، مما يؤمن القضاء على القرصنة في البحر، وهو ما نسميه مع فرناند برودويل الثروة الهائلة.

الفصل الأول
الجزائر في بداية القرن السادس عشر

المدينة:

المعلومات التي تتوفر لدينا والمتعلقة بمدينة الجزائر قبل هذا العصر قليلة. فعدا عن موقعها الجميل وكونها مكانا يجتمع فيه كل المسافرين إلا أن أحدا لم يصفها بأنها كانت مركزا تجاريا وفكريا كبيرا.

فقد خصص لها البكري في القرن الحادي عشر بعض السطور فقط(2) ووصفها الادريسي بأنها مركز تجاري مزدهر في القرن الثاني عشر(3) وفي نفس العصر وصفها المراكشي بأنها مدينة صغيرة اسمها الجزائر وتنتمي إلى قبيلة بني مزغنة(4). أما العبدري في القرن الثالث عشر فقد ذكر بكل أسف أنها كانت محرومة من العلم، وأضاف قائلا: انه لمن الصعب مقابلة أناس مثقفين أو أشخاص من ذوي المعرفة والعلم (5).
وعلى العكس من ذلك، فإن الاشعاع الفكري في القرن الخامس عشر للعلامة سيدي عبد الرحمان الثعالبي، برهن على أن المستوى الثقافي للمدينة ليس متدنيا ولم تخب كل العلوم في هذه المدينة ومع ذلك فإن هذا الأثر الثقافي مازال حديثا. ولا شيء يدل في السابق على أن مدينة الجزائر بلغت من مستوى الثقافة مصاف المدن الغنية بأدبائها وعلمائها مثل مدن تونس وبجاية أو تلمسان.

وتؤكد لنا مقولة لجاك بيرك والتي يرجع تاريخها إلى عصر انطلاق الفكر في مدينة الجزائر بأن "عبد الرحمان الثعالبي لم يكن المؤسس الأول لهذه المدينة بل يمكن أن يكون المؤسس الثاني لها(6).

"لقد ظل سيدي عبد الرحمان الذي ينحدر من قبيلة الثعالبة المشهورة والذي حكم مدينة الجزائر حتى ذلك اليوم سيد المدينة"...

ورغم أن الاشعاع الفكري لمدينة الجزائر كان معدوما أو غير كاف إلا أن هذا لا يعني بالتأكيد عدم وجود مراكز للدارسة في المدينة مثل المدارس والزوايا. وقد لاحظ "ديلقوكس"من خلال أبحاثه الأثرية عن الجزائر في فترة ما قبل الأتراك(7) وجود زاوية في المكان الحالي لجامع المسمكة، ومدرسة العنانية ومدرسة ابن السلطان ومدرسة ابن الملك والتي يفصلها عن (شارع ماهون سابقا) بعض الشوارع.

كما ذكر في نفس الوقت عدة مساجد اختفت فيما بعد حيث كانت موجودة في المدينة ونذكر منها: جامع صغير كان يوجد في المكان الحالي لجامع كتشاوة، جامع ستي مريم بالقرب من باب الواد، الجامع المسمى سيدي عبد الرحمان من جهة البحر، جامع سيدي رمضان في مرتفعات المدينة تحت سور القصبة في ذلك الوقت.

وبالتأكيد كذلك الجامع الكبير الذي بناه المرابطون في القرن الحادي عشر مقابل البحر، وهو بدون شك بني على أنقاض الكنيسة التي وصفها البكري في بداية نفس القرن "حيث نستطيع مشاهدة حجارة كبيرة في قواعدها وأسسها كتب عليها بالحروف اللاتينية.

تتمتع مدينة الجزائر بازدهار أكيد وهذا راجع إلى موقعها على شاطئ البحر، وعلى مقربة من سهل المتيجة الغني مما أدى إلى سهولة التجارة في هذه المدينة كما يشهد على ذلك وجود"قيسارية" (8) وهي حارة مخصصة للتجار الأوروبيين والذين كان لهم الحق في وجود قنصل، وكنيسة ودكاكين(حوانيت)خاصة بهم كما أنهم يمتلكون مساكنهم الخاصة(9)، ان وجود هذه القيسارية استلزم ضمنيا وجود "مكتب للجمارك" لأن المسيحيين لا يسمح لهم بممارسة نشاطاتهم إلا في بعض الموانئ هناك حيث قاموا بانشاء مكاتب الجمارك(10).

إننا لم نجد لها أي أثر لكننا قد نشاهدها مبنية غير بعيد عن مسجد المرابطين الكبير والذي كان يمر بالقرب منه الشارع الروماني القديم والذي سمي منذ ذلك الحين بشارع البحرية. والذي كان يستخدم منذ القدم لخدمة

الساحل(11) لأنه لم يكن يوجد بعد أية منشآت مرفأرية: فالجزر الصغيرة التي سميت الجزائر باسمها تشكل واقيا سيئا ضد العواصف البحرية في الشتاء لذا كان يجب سحب السفن والزوارق على الشاطئ وربطها عند مصب واد مراسل. وشيد الجامع الكبير والبيوت التي تشكل واجهة للبحر على نتوء صخري وعر داخل البحر ويصل ارتفاعه إلى 12متر.

بنيت مدينة الجزائر بشكل شاقولي على مستوى سطح الماء كما نستطيع تخيلها في أيامنا هذه حيث نرى بعض نقاط الكورنيش متجهة نحو بولوغين.

ان مدينة الجزائر نفسها تتدرج من جانب التل محاطة بسور كبير مبني من الآجر وهو في حالة سيئة(12). وهناك بابان رئيسيان (ان لم يكونا الوحيدين) يفضينان إلى جنوب سهل المتيجة، وهما:باب عزون وشمال مجرى واد مراسل ومرتفعات بوزريعة، والثاني هو باب الواد، ويصلهما شارع كبير وهو شارع الأسواق حيث يوجد في معظم التجار. ويقع السوق الأسبوعي الذي يدعى سوق الجمعة في المكان الذي صار يسمى شارع سوق الجمعة... ويطل مدخل قصر الحكومة على وسط شارع الأسواق تقريبا: "الجنينة"أو دار السلطان القديمة". ويمكن أن نتساءل مع بيربروغر:متى ومن الذي بناه؟بدون شك فقد شيّد على أنقاض الآثار الرومانية مثله مثل الجامع الكبير. وأثناء طوافنا في المتاهة ومبانيها حتى ولو اختلفت في عمرها وشكلها إلا أننا شاهدنا الشرفة ذات الأقواس التي بناها العرب والتي ترتكز على أساس من الحجارة ذات الحجم الكبير والتي يمكن أن تكون من صنع الرومان(13). والذي يهمنا في ذلك العصر انه بالتأكيد لم يكن له أهمية. مثل التي صار عليها فيما بعد حيث أصبح حارة حقيقية للبناء المتواصل للعديد من العمارات في وسط المدينة. ولكنها كانت من المؤكد في الماضي مقرا لمجلس الاعيان الذين كانوا يحكمون المدينة في الواقع فإن الوصف الذي أعطاه "غزوات خير الدين" للقصر حيث كان محاصرا من قبل المتمردين الجزائريين فهو يطابق تماما موقع الجنينة وتقودنا إلى هذا القصر ثلاثة شوارع، وهي الشوارع الرئيسية الثلاث في المدينة، وأضاف من جهة أخرى أن هذا القصر كان للباشا في الوقت الذي

كتب فيه هذا الوصف سنة 1560وكان من الطبيعي جدا أن تغتصب عائلة بارباروس الحكم في مدينة الجزائر، كما أثبت بيربروغر، وأن تقيم في البيت الملكي الذي يعود إلى أجدادهم السابقين، وهو مسكن ملائم جدا وبدون شك تستطيع مدينة الجزائر أن تقدمه للملوك(14).

ومباشرة بعد الجنينة يوجد أرض بور حيث يمكننا أن نشاهد بقايا آثار رومانية بين الأشواك، ومنها مدرج مدينة الجزائر الذي كتب عنه البكري(15) كما نشاهد في ذلك المكان أيضا أكيدوك(Acqueduc) روماني، ومن جهة أخرى فإن المدينة لم تكن محاطة بأشجار الصنوبر المزروعة إلى جانب بعضها بعضا كنسيج مشدود. والتي سيذكرها هاييدو فيما بعد. وتحتوي مدينة الجزائر على مسافات كبيرة خالية وآثار رومانية انبثقت في وسط المقصورة(16). وهذه الشوارع الضيقة البسيطة يمكن أن تكون أيضا على منحدر يسوده شاطئ رملي باتجاه جامع المرابطين الذي بني بشكل زوايا على الطريقة الرومانية(17).

وبوصول الأتراك إلى ذلك المكان المستوي والمهمل منذ عدة قرون: حيث لا يرى سوى بعض الآثار والأشواك التي ترعى فيها الأغنام. ونظرا لهذه الحالة فإن الأتراك أطلقوا عليه اسم كيسي أوفا:أي سهل الأغنام وبقي هذا الإسم ينتقل من الشيوخ إلى الشباب جيلا بعد جيل(18).

إن البناءات لا ترتفع كثيرا مثل مسجد سيدي رمضان الصغير الذي بني سقفه من القرميد الأحمر، والمنارة الثقيلة المسننة تشير إلى النهاية العظمى للجبل (أي المدينة بحصر المعنى)، حيث يوجد ألف إلى آلفين من البيوت تتكون منها المدينة ولا نبالغ إذا قلنا بأنها كانت مسقوفة ومقرمدة على الطريقة القبائلية أين تمتد ساحات شيدت على الطريقة العربية أو الأندلسية دون شك(19).

وتوجد القلعة:"القصبة" خلف جامع سيدي رمضان حيث تقع القصبة على انخفاض 300 متر عن مستوى القصبة التي نعرفها الآن. وفي الواقع فقد امتدت بدون شك نحو الغرب من سنة 1552-1572 وهو تاريخ أقدم

وثيقة عرفت والتي أعطت لجامع سيدي رمضان الاسم الذي حمل خلال قرنين من الزمن وهذا الاسم هو جامع القصبة القديمة(20). يعني ضمنيا بأنه يوجد مسجد جديد آخر.

وتوجد مقبرة أطفال الملوك غير بعيدة من هناك مما يجعلنا نفكر بأن ملوك الجزائر والأمراء البربر والسادة المرابطين كانوا يسكنون الحصون في العصور الغابرة (21).

ومهما يكن فقد كانت في بداية العصر في حالة سيئة جدا، وهذا ما يفسر مبادرة عروج بالقيام بتحصين المدينة عندما استلم السلطة. حيث قام بتزويدها بقليل من المدافع (22).

وكانت الجزائر في الماضي تشكو من مشكلة الماء. ولكن يوجد بالتأكيد عدة موارد صافية من المياه والتي تسيل على الشاطئ حيث يستخدمها السكان للشرب(23). وأدت هذه الموارد المائية إلى علاقات اجتماعية كبيرة في الميناء بين السكان والبحارة الأجانب الذين يجدون مكانا سهلا للتزود بالماء العذب، ولكن ما من شك في وجود نبع ماء في سهل الأغنام الموجود داخل المدينة "والذي سمي فيما بعد كتشاوة".

ومن أجل احتياجات التنظيف فإنه يوجد في كل بيت بئر أوخزان ماء. أما ماء الشرب فيجب الذهاب يوميا لتعبئته واحضاره، ونقل هذه المياه مضمون بواسطة الحمير والجمال. لا يوجد مصلحة تشرف على التنظيف بشكل منظم جدا، لذا فأمام كل بيت أعدت أحواض لقاذورات الشوارع (24). كما أنه لايوجد مصارف للمياه حيث كانت الأوساخ ترمى في البحر، ولايوجد دور للضيافة أو فنادق بل يوجد فقط خارج باب عزون بعض الأماكن التي يمكن تأجيرها بدون أسرة ولا غذاء وهي أماكن تسمح للأشخاص النوم ممددين على الأرض وأماكن أخرى لربط الدواب والمطية التي يركبها هؤلاء. أما من كان له أصدقاء فيمكنه أن يسكن عندهم(25).

التجمع السكاني:

تكتسي الجزائر أهمية كبيرة بالمقارنة مع مدن مغربية أخرى كما ذكر لنا مؤخرا ليون الإفريقي سنة 1529· ويقول:أن هناك4000عائلة(26) في مدينة الجزائر، 6000 عائلة في وهران، 8000 عائلة في بجاية و13000عائلة في تلمسان· آخذين بعين الاعتبار في ذلك الوقت حيث كتب عن التقدم والازدهار الرائع الذي عرفته المدينة بعد وصول الأتراك ونستطيع القول أن المدينة كانت صغيرة ومتواضعة في بداية القرن·

ان تجمعات المدينة السكانية النشيطة والتي تعمل بالتجارة تتكون قبل كل شيء من (البلدي) وتعني ناس البلد وهم خليط محتمل من قبيلة الماكيل الموجودة في سهل المتيجة ومن المغاربة(القادمين من المغرب) الوطنيين من سلالة بني مزغنة القاطنين على الجزر التي بني عليها بولغين المدينة· وكما ذكر لنا غرامونت بأنهم أناس ذوو أخلاق طيبة ولطيفة، كسولون، كثيرو الكلام وفضوليون(27)· كما أنهم يعملون بالتجارة ويمارسون القرصنة كلما سنحت لم الفرصة وربما يعملون أيضا في تجارة الذهب والعبيد مع افريقيا السوداء، ويزرعون حدائقهم في سهل المتيجة، ويبيعون للبحارة الأجانب الزبدة، الجلد، العسل والشمع·

واجتمعوا في مجلس أعيان تحت حماية قبيلة الثعالبة الذين كانوا يحكمون المدينة·

وجاء اللاجنون الإسبان فيما بعد حيث أطلق عليهم المؤلفون الأوروبيون اسم الموريسك أي المغاربة ليفرقوا بينهم وبين السكان المغاربة الأصليين والذين هم بالنسبة لهم كل سكان المدينة غير الأتراك·
ويقسمون إلى فئتين:

1 - التغريون: جاؤوا من مملكة الاراغون في فلنسيا وكتالونيا·
2 - المودجار(Mudegarre) وهم آخر من وصلوا من غرناطة والأندلس، وحافظوا على لغتهم حيث يتكلمون الإسبانية فيما بينهم (28) وجلبوا معهم من بلادهم تقاليدهم الفنية والحرفية حيث أنهم يصنعون الأسلحة،

والبـارود ويربـون دودة القـز. ويـصنعون الأقفـال، ويعملـون بالنجـارة والنحت، يتقنـون البنـاء والخياطـة وصناعة الأحذيـة، ويتقنـون صناعة الفخـار ولهم مميزات مشتركة: وهـي أنهـم يكرهـون المـسيحيين ولـن يـصفحوا عـنهم أبـدا لانهـم أضـاعوا بلادهـم وعنـدما تـوفرت لـديهم الامكانيات جهزوا سفنا صغيرة بالسلاح كـي يبعثوها للقرصنة حتـى تحل محل سفنهم التـي مازالـت موجودة فـي اسبانيا، ويقومـون بالقـاء القبض على سفن وعبيد مسيحيين كلما سمحت لهم الفرصة رغبة فـي الانتقام.

لقد بدأت القرصنة في هذا العصر تأخذ اهتماما كبيرا وذلك يعود إلى فضلهم فـي هذا المجـال بعد ان كانت القرصنة فـي هذا الجزء من البحر الأبـيض المتوسـط عبـارة عـن حكايـات ونـوادر. ولـم تتطـور القرصـنة الاسلامية إلا عندما تقدمت الفتوحات بحيث سمحت لها بتدمير السواحل المسيحية (29) فوضعت الانثناءات والانعطافات لطرد السفن المسيحية وعلى الأخص منها السفن الإسبانية، وهذا العناد والاستبسال يبين مدى حق الإسبان ورغبتهم الشديدة في استرجاع بضائهم المتروكة في أوروبا بأي طريقة كانت. وبوصول القراصنة إلى هذه المنطقة انتعش ونشط الساحل المغربـي بفضلهم مثلا صـارت مدينة الجزائر مركزا للقرصنة فـي القرن الرابع عشر(30) ويمكننا القول بأن القرصنة لم تصل أهميتها فـي ذلك العصر إلى الدرجة التي وصلت اليها فيما بعد، ونحن نعرف مثلا أنه في سنة 1510 عندما فرض ملك الأراغون عى سليم التومي تحرير العبيد المسيحيين المحتجزين في مدينة الجزائر فان هذا الأخير لم يأخذ معه سوى 130 أسيرا عندما ذهب إلى بورغوس لإعلان ولائه وطاعته وكان قد فك قيود هؤلاء الأسرى(31) بينما تحدث هابيدون عن 25000 من العبيد وجدوا في مدينة الجزائر في نهاية القرن.

واليهود يشكلون عنصرا آخر من عناصر هذا التجمع السكاني، فالهجرة الأولى والهامة التي قام بها ألفونس أراغون من اليهود المايوركيين على اثر فتح جزر البليار سنة 1287 والذين أطلق عليهم اسم "الشكليين" لأنهم كانوا يحملون معهم باستمرار أبا عن جد شريحة مسكيرة تسمى

"شيكلا". وشهد القرن الخامس عشر وصول أعداد كبيرة من اللاجئين الإسبان الذين أطلق عليهم اسم "كيبوزيين" نسبة إلى القلنسوة التي كانوا يرتدونها والمعروفة باسم"كابيوس".

واحتل هؤلاء الجزء الأسفل من كل جهة في شارع السوق الكبيرة وخاصة بين الشارع والبحر، كما تجدهم بالقرب من باب الواد ومقابل السور حيث يوجد هناك كنيسهم(معبدهم) الرئيسي:"الحارة" وهي مكان اللجوء في أيام الهيجان والفتن الشعبية. وكانت علاقتهم جيدة مع بقية سكان المدينة في ذلك العصر حيث كان وضع الحفصيين يتصف بالتسامح والتساهل الواسع(32).

وجلب هؤلاء المهاجرون بذكائهم المال والعلم وكفاءاتهم واستعدادهم للتجارة والصناعة. ونذكر من بين الذين قدموا من غرناطة "الجافيسون"الذين كانو أطباء لملوك مدينة الجزائر(33). كما جلبوا معهم من اسبانيا طاولات القانون المطرزة بالذهب والتي حفظت في كنيسهم الموجود في مدينة الجزئر لغاية سنة 1962. كما حفظوا بكل ورع وتقوى في مكتباتهم عددا كبيرا من المخطوطات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الذين سكنوا الكاستيل في اسبانيا. وكان الشعر يشكل موضوعا للدراسات بالنسبة ليهود اسبانيا (34) وان مهنة اليهود التقليدية هي صياغة الذهب وصك النقود، كما أنهم، كانوا تجارا متخصصين في بيع وشراء البضائع التي غنمها القراصنة من المسيحيين.

ويستطيع اليهود التنقل بكل حرية وهم يعيشون مثل المسلمين ويتمتعون بصداقة حميمة مع عامة الناس ويحظون باحترام الحكام لهم (35). ويمكن أن نشير إلى الأهمية الاستثنائية ليهود الجزائر في القرن الخامس عشر حيث أن مدينة الجزائر لم تحتل بعد مكانتها لتكون عاصمة(36). وفي الواقع فوجدنا بتألق وإشعاع الحاخامين سيمون ديورن واسحاق برافت، حيث أن كلامهم يعتبر بمثابة قانون يقتدى به للطائفة اليهوية داخل المدينة كما في خارجها وحتى بجاية، وتحت تأثير هذين الحاخامين فان الطائفة اليهودية اعترضت على صلاحيات شيخ بجاية

المعين من طرف الحكومة وقد شكل اليهود مجلسا خاصا بهم يسمي "تيا ايمانيم" حيث ينتخب أعضاؤه انتخابا، ويعمل هذا المجلس على حل المشاكل الخاصة باليهود ويمنع اليهود من الاحتكام إلى غير المحاكم اليهودية بحيث صاروا يحترمون المحاكم الربانية الحاخامية شيئا فشيئا.

فمدينة الجزائر وتلمسان تبدوان وكأنهما العاصمتان الثقافيتان ليهود شمال افريقيا.

وإلى هذه العينات لثلاث من التجمع السكاني يجب اضافة "البيراني" وهم الناس الذين قدموا من الريف.

وهؤلاء هم أولا من النوماديين الذين جاؤوا من الجنوب (العرب أوالعربس) كما تسميهم النصوص الإسبانية، وهم فئة من المتشردين والغير مرغوب فيهم جاؤوا على وجه الخصوص لطلب الصدقات (37) وبشكل عام فإنهم يعيشون في الضواحي الشعبية أمام باب عزون.

وتخصص المزابيون والبسكريون الاغواطيون والقبائل في بعض المهن مثل: العمل في الحمامات، القصابات، الطواحين، وعملوا كمزودين للمزابيين بالعبيد السود كما تخصصوا في السقاية (حمل الماء) وفي تنظيف القاذورات والأوساخ، في حفر آبار المياه، ويعملون عتالين عند آخرين.

انهم يأتون للعمل في مدينة الجزائر ولكنهم لايحضرون معهم عائلتهم، اضافة إلى بعض التجار المسيحيين الذين يعيشون داخل "الكيساريا" وبهذا فقد تكونت لدينا فكرة عن هذا التجمع السكاني المتباين في المدينة، وسترتفع نسبة هذا التباين في السكان مع وصول الأتراك.

والجيش؟ لا نتكلم عنه ابدا، فبعد الزمن البطولي الذي تحدث عنه ابن خلدون في القرون الماضية أين رأينا الجزائريين يقاتلون عدة مرات ضد أسياد الشرق والغرب الذين طمعوا في مدينتهم، يبدو أن حب القتال قد ترك مكانه للبرجوازيين الهادئين والتجار.

وهذا يفسر لنا حالة المسؤولين الذين فضلوا توقيع المعاهدات مع الإسبان سنة 1510 بدل أن يقاوموهم.

وتلخيصا لهذا، فإن مدينة الجزائر في نهاية القرن الخامس عشر، كانت مدينة سعيدة، مزدهرة مسالمة، وتستقبل زوارها بوفرة وغزارة ولا يوجد فيها شخص يعيش مهددا بالخطر، ولا أحد يستطيع التكهن والتنبؤ لمدينة الجزائر، فهي مدينة ذات أهمية متوسطة، ويحكمها مجلس أعيان برجوازي، وربما سيجعلها غناها هذا عاصمة لدولة ما في يوم ما (40).

حالة حوض البحر الأبيض المتوسط:

كانت الامبراطورية العثمانية في أوج توسعها في منطقة المشرق. فبعد قتالها التي خرجت منه منتصرة على الامبراطورية الرومانية في الشرق، وسقوط استانبول سنة 1453. كان الجيش التركي ينتقل من نجاح إلى نجاح: فانتصر على الفرس في معركة تشالديران سنة 1514، وانتصر على سوريا سنة 1517 بحيث ضمن السلطان حماية الأماكن المقدسة في المنطقة العربية، كما ضمن أيضا طريق الذهب في السودان. وفي شهر أوت 1517 تسلم السلطان مفتاح الكعبة المشرفة من ابن شيخ مكة(41)، وهكذا فقد أصبح سلطان استانبول وهو الملك الذي اختاره الله لحماية العالم الإسلامي وليس فقط رئيسا لدولة ذات حدود معينة(42).

في الغرب، بعد المرحلةالنهائية للفتوحات والتي نتج عنها سقوط مدينة قرطبة سنة1492، أمل الإسبان في الانتقام من المسلمين في محاولة من طرف اللاجئين الإسبان لإعادة فتح الأراضي التي خسروها كما قال فرنان بروديل:"ان كل مؤرخي الكاردينال خيميناس (Ximenes) قد ركزوا على الأسباب الدينية للمشاريع الإسبانية على هيئة صليب هذه الأسباب لايمكن اهمالها، ولكنها ليست الوحيدة، فاسبانيا لا تضمن مستقبلها إلا إذا جاء اليوم الذي تصبح فيه سيدة السواحل الإفريقية المواجهة لها(43).

وزيادة على ذلك فإن حركة القراصنة الجزائريين والأمراء العرب كانت تزعجهم. فالتمرد الذي حدث فيما بين 1499-1502 بمحاولات من

خيميناس(Ximenes) لتحويل الموريين(المغاربة) عن دينهم وذلك حتى يخلص اسبانيا من الشعور بالخطر المتمثل في شمال افريقيا.

ورغم تردد فارديناند درارغون فإن الكارديناال بدأ الحرب سنة 1505 ثم استولى على المرسى الكبير في وهران، وفي سنة 1510، استولى على مرسى بجاية.

ويمكننا أن نلاحظ بأن مدينة الجزائر لم تكن تقلقهم كثيرا حتى يقوموا بابعاد خطرها عنهم بسرعة. والأهم من ذلك بالنسبة اليهم هو ضرورة ضمان الموانئ الهامة لممالك الزيانيين والحفصيين قبل أن يبدأوا بالهجوم على المدن الصغيرة المستقلة والتي لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يكون الدخول منها إلى الساحل الايبيري يحمل مظهرا من مظاهر الفتح ثانية.

الفصل الثاني
مدينة الجزائر تستنجد بعائلة بارباروس

كان سليم التومي يحكم مدينة الجزائر سنة 1510 وهو ينتمي إلى قبيلة الثعالبة فرع بني تومي(44) وبمجرد الإعلان عن سقوط بجاية أصاب مدينة الجزائر هلع شديد لأنها لم تكن تملك إلا القليل من الأسلحة ولم يكن لديها أية مدفعية (45). لهذه الأسباب كلها اجتمع مجلس أعيان المدينة وقرروا توقيع معاهدة استسلام بدل الوقوع تحت الحصار.

قلعة البنيون:

في 31 جانفي 1510 ذهب سليم التومي بصفته شيخ مجلس الأعيان متوجها إلى بجاية لاعلان ولائه للقائد الإسباني "بدرونافارو" الذي احتل عاصمة الحماديين القديمة.

وطلب هذا الأخير من سليم التومي دفع ضريبة باهضة واطلاق سراح كل العبيد المسيحيين الموجوين أسرى في يد سكان المدينة ولكن من جهة أخرى فرض بناء قلعة على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر، وزيادة على ذلك فإنه يتوجب على حاكم مدينة الجزائر الذهاب شخصيا لاعلان خضوعه وطاعته لملك اسبانيا برفقة مولاي عبدالله حاكم مدينة تنس الذي أعلن بدوره خضوعه وطاعته وكانوا محملين بالهدايا الثمينة ومعهم 130 من العبيد المسيحيين ثم تحريرهم ورفعت القيود والسلاسل من أيديهم وأرجلهم(46). ولم يتوفر لدينا أي معلومات عن معاهدة الاستسلام واعلان الطاعة التي وقعها سليم التومي ولكننا نعتقد أن هناك نقاطا كثيرة مشابهة لتلك التي تم توقيعها في العام الذي تلاه والخاصة بمدينة مستغانم والتي تنص على أن السكان المغاربة أو اليهود كلهم مجبرون على خدمة ملكة القلعة بوفاء واخلاص، ويدفعون كذلك الضرائب والغرامات المفروضة عليهم وذلك في أول جوان من كل سنة. وتحول هذه المبالغ الآتية من الضرائب إلى أمين خزينة مدينة وهران دون أي تزوير أوغش أو نقصان أي شيء منها

وتنص المعاهدة أيضا على استرجاع كل العبيد المسيحيين الذين ينتمون إلى سكان مستغانم ومزغران... كما يتم لحاكم قرطبة دون دييغو فرناديز احتلال حصون هاتين المدينتين باسم سمو أميرة قرطبة وعلى السكان أن لايرفضوا بيع الجنود المواد الغذائية التي يحتاجونها بأسعار معقولة، وفي حالة ترميم هذه الحصون أو تطويروسائل دفاعها أو بناء حصون أخرى، على السكان أن لايعترضوا على ذلك بل يتوجب عليهم تقديم المساعدة باعارة حيواناتهم بأسعار معقولة كما يجب عليهم تزويد مدينة وهران ومرسى الكبير بالمواد الغذائية إذا طلب منهم ذلك، وأن لا يسمحوا بشحن أوتفريغ أي باخرة في الميناء دون الحصول على اذن من الملك أو الملكة..الخ...(48).

واستخلصنا من هذه الوثيقة الخاصة بوضعية مستغانم عبارات وكلمات معينة، ولكننا احتفظنا بالسياق الذي تم فيه تحرير المعاهدة مع مدينة الجزائر:

وهذا ما يفسر كيف أن المهندس المعماري مارتان دو رونتيريا جاء طواعية أواكراها (49) حيث خصصت نفقات كبيرة لبناء القلعة على أحد أهم الجزر المقابلة للمدينة والتي أصبحت تعرف باسم قلعة البنيون نسبة إلى الصخور الصلبة التي بنيت عليها (50).

ولا يوجد على هذه الجزيرة التي تقع على بعد 300متر من مدينة الجزائر سوى حصن صغير بناه الأندلسيون القادمون من اسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر حيث كان يستعمل كمنارة أو برج مراقبة(51). وفي هذا المكان تم بناء قلعة على شكل مثمن (52) ومحصنة بحصنين (53) وبعد أقل من عامين أصبح الميناء مراقبا من على صرح حصن يحتوي على قلعتين وأربعة معاقل يربط فيما بينها سور يحتوي على عدة فتحات، وكان يربض في هذه القلعة حوالي 200 جندي من الجنود المختارين (54). وكان لهذا الحصن مع صغرحجمه أهمية في ذلك العصر. إلا أنه كان لهذا الحصن نقاط ضعف عديدة من بينها: احتوائه على أربعة معاقل فقط اثنين منها يطلان على مدينة الجزائر والإثنين الآخرين يطلان على عرض

البحر (55). وكان موقعه قريبا من المدينة بحيث أن طلقات الأسلحة النارية تصل اليابسة وأن طلقات المدفعية تمر من فوق المدينة من سور إلى اخر (56) ومهمة هذا الحصن هي مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون انقطاع واحباط كل محاولات السيطرة على مدينة الجزائر من جهتها البحرية(57). وكان من مهامه أيضا اجبار سكان مدينة الجزائر على احترام من في الحصن، ومنع القراصنة من استعمال الميناء كملجأ (58).
وحسب الأقوال الشعبية آنذك فإن هذا الحصن كان ينظر اليه كشوكة في قلب كل جزائري (59).

ولو أن المدينة كانت غير محتلة فإن وجود هذه القلعة بالقرب منها غير مرغوب فيه ويعتبر اهانة لسكانها ويقول مارمول(60): أن مدينة الجزائر في عهد سليم كانت تمول الحصن، لا نتصور بأي حال من الأحوال أن الجنود الإسبانيين كانوا قابعين داخل هذا الحصن لا يبرحونه والمدينة هي أقرب ما يمكن منهم فنزول الجنود إلى المدينة وابتزازهم لبعض الأشياء كان يشكل اهانة لكل السكان(61) مما دفعهم إلى ارسال رسول إلى اسبانيا في ربيع سنة 1515 لاقتراح هدنة مقابل دفع بعض الضرائب للملك(62).

كان لسليم عدة معارضين ازاء مشروعة القاضي باعلان االطاعة والخضوع للاسبان ومما زاد في هذه المعارضة تصرفات الإسبان مع السكان: حيث عاشت مدينة الجزائر منذ سنة 1510 اضطربات كان سببها اختلاف الآراء حول قضية دفع الضرائب ووجود الحامية الإسبانية قرب المدينة، وشجع سليم على احترام المعاهدة بحيث أن هذه الحامية كانت توفر لهم الأمن والحماية مع أن نبلاء المدينة.
والأهم كانت آراؤهم مخالفة(63).ولنتمعن جيدا كيف كان ديلقوكس ينظر إلى الحريات في القرن التاسع عشر: وهاهي مدينة الجزائر خاضعة، مهددة، مقسمة وبالتاكيد فقيرة لأن قلعة البنيون بمثابة دركي يعوق عملية القرصنة والتجارة مع أعداء اسبانيا ولكن هذا يعتبر قليلا مقارنة بما ضاع من حريات حيث ستدوم هذه الوضعية ست سنوات.

عروج برباروس:

في هذ الوقت كان البحر الأبيض المتوسط مسرحا لانتصارات مدوية أحرزها أربعة اخوان من أصل أحد الجزر اليونانية(والتي بلا شك هي جزيرة ليسبوس وكان يتميز هؤلاء الإخوة بالشجاعة ومعرفة علوم البحر مما جعلهم قراصنة مهابي الجانب في البحر الأبيض المتوسط.

وبعد دخولهم الإسلام وضعوا أنفسهم تحت خدمة سلطان استانبول حيث كانوا يقومون بحملات جريئة على شواطئ اسبانيا قصد مساعدة مسلمي الأندلس على الهروب من هذه الجزيرة وكانوا يملكون حوالي عشرة سفن عليها حوالي 1000 رجل جاعلين من القرصنة حرفة لهم. وتربطهم بسلطان تونس علاقة تعتمد على اقتسام الغنائم. كما كانوا يمدونه بالعون. وبعد سنتين من سقوط بجاية في يد الإسبان جهز سلطان تونس حملة بقيادة الإخوة باربروس لاسترجاع مدينة بجاية التي كانت خاضعة له وبعد حصار مدينة بجاية فشل عروج في استرجاعها وعاد إلى تونس بعد أن فقد قسما من أسطوله في معركة مع دوريا. وأعاد بناء أسطوله في جيلفيز، وفي شهر أوت 1514 خرج بأسطول من من12 سفينة حربية وعلى متنها 1100 تركي وحاصر مدينة بجاية من جديد دون سابق اذن من السلطان (64). غير أن هذه الحملة باءت بالفشل مثل سابقتها ومرد هذا الفشل حسب أقوال البعض أن الأهالي الذين كانوا قد انضموا اليه فضلوا الرجوع إلى العمل في أراضيهم الزراعية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن سلطان تونس قد تخلى عن الإخوة باربروس حسدا على الانتصارات التي حققها الإخوة باربروس (65) ولجأ عروج واخوانه بعد ذلك إلى جيجل حيث قام بطرد الجنويين (نسبة إلى جنوة) منها وأسس مملكة صغيرة، والتحق به أكثر من 20.000 من الأهالي البربر وقدموا له خدماتهم لتخليص البلاد من الكفار (66). ولسنا هنا بصدد سرد حياة عائلة باربروس إلا أننا في هذا الوقت نشير إلى أن عروج الأكبر كان يحمل مشعل العائلة التي تتكون من اسحاق وخير الدين بعد موت الياس.

ومن بين البربر الذين انضموا إلى عروج نذكر أحمد بن القاضي الذي سيلعب دورا هاما فيما بعد. وينحدر من عائلة أبي العباس الغبريني

العالم بعلوم الشريعة والفقه في القرن الثالث عشر (67) الذي كان يعمل قاضيا لدى آخر سلاطين بجاية ثم تمت ترقيته إلى رتبة خليفة في المنطقة الممتدة من الصحرء إلى جيجل.

وبعد سقوط بجاية عام 1510 تزعم القبائل قصد الوقوف في وجه الغزاة (68) ولما جاء عروج إلى بجاية التحق به ابن القاضي وأصبح خليفة له على اثر ذلك تولدت صداقة متينة بينهما والتي سيكون لها أثر ايجابي على عروج بحيث أن هذا الأخير يقوم بمهاجمة مدينة بجاية من جهة البحر بينما تهاجمها جيوش ابن القاضي المكونة من آلاف الرجال من ناحية البر(69).

غير أن عبد العزيز رئيس قبيلة بني عباس وعدو ابن القاضي كان قد بذل جهودا كبيرة لفك هذا التحالف بين بارباروس وعدوه ابن القاضي. ومات فردينند داغون في 23 جانفي 1516 أي بعد مدة من فك التحالف بين بارباروس وابن القاضي.

وكانت الحراسات ملحة وضرورية في مدينة الجزائر: وأخيرا جاءت الفرصة لتحطيم معاهدة الذل والعار وهدم قلعة البنيون وكان سليم التومي قد فكر بعائلة بارباروس وأعتقد بأنها أفضل من يساعده في محاربة القلعة.

واوفد سكان مدينة الجزائر نحوهم عدة شخصيات بارزة(70) لاقناعهم وترجيهم بالقدوم لتخليصهم من مضايقة وظلم المسيحيين وتهديم هذه القلعة(71) وقبلت عائلة بارباروس هذا الطلب ورأت في ذلك فرصة للاستيلاء على مدينة الجزائر الهامة والغنية جدا والمأهولة بالسكان بأنها مريحة ومناسبة لعمليات القرصنة(72).

وتتباين المعلومات حول طبيعة القوى التي اصطحبها عروج معه في هذه الحملة فوصفها هاييدو بأنها تتكون من 16 سفينة شراعية صغيرة وصلت من البحر وتحمل على متنها 500 تركي كما أحضر معه المدفعية والبارود والمؤونة وأدوات الحرب بينما هو نفسه جاء عن طريق البر ومعه 800 تركي مسلحين بالبنادق. و3000 من الموريين (المغاربة الذين

يسكنون جبال جيجل، هؤلاء التابعين كما تبعه 2000 آخرين آملين في الحصول على غنائم (73). حيث يقدر عددهم الإجمالي حوالي 6000 رجل وهو ما يشكل جيشا حقيقيا صغيرا.

وكيف نقبل بعد هذا قتل الحملة خاصة بعد اعترافات كل الشهود وحتى الناهضين منهم لبابابا روس والذين وصفوا اقدامه وشجاعته في المعركة.

وعدد الجنود المذكور أعلاه يبدو لنا غير مقبول فمؤلف زهرة النيرات قال بأن باربا روس قد ذهب مع ثلة من رجاله على متن سفينتين حربيتين بينما لحق به اخوانه بـ 280 تركي وأربع سفن صغيرة و15 قطعة مدفعية كبيرة (74) وذكر ساندر رانج ودنيس من خلال ترجمتهم لغزوات خير الدين بأن خير الدين كان متسلحا بأربع سفن صغيرة تحمل على متنها عدد كبير من الجنود و15 قطعة كبيرة من المدفعية وأرسلهم تحت قيادة أخيه اسحاق لنجدة عروج(75).

ويبدو من الأقوال السابقة حول عدد وعدة الجنود أن سفينتين حربيتين وأربع سفن صغيرة هو العدد الأقرب إلى التصديق، وزد على ذلك أن هذه السفن كان يجب عليها أن ترسوا في مكانين مختلفين على الشاطئ دون أن يكتشفها برج المراقبة في قلعة البنيون(76).

والمؤكد هو أن القسم الأعظم من الجيش الذي كان يقوده عروج جاء عن طريق البر بينما جاءت التعزيزات والامدادات من جهة البحر تحت قيادة أحد اخوانه.

وعندما علم سليم التومي بقدوم هذا الجيش خرج لاستقباله وتم اللقاء على بعد مسيرة يوم من مدينة الجزائر(77).

ولكن كان على عروج أن يسوي بعض حساباته مع أحد أصدقائه القدامى قبل دخوله مدينة الجزائر، وكان يحكم شرشال آنذاك أحد القراصنة الذي رأى في عروج خطرا على مدينة الجزائر بحيث يجب التخلص منه أولا.

وهنا أيضا اختلف المؤلفون وحسب هاييدو فإن هذا القرصان الذي عاصر عروج يسمى كارا حسن. غير أن الغزوات ستتكلم عن كارا حسن الذي نال جزاءه وعقابه من طرف خير الدين بعد 12 سنة من فشله في حملته ضد القبائل؟ وهنا يطرح السؤال، هل أن كارا حسن المذكور سابقا هو نفس الشخص؟ أم أنهما شخصان مختلفان؟ وفي كلتا الحالتين نتكلم عن القرصان كارا حسن الذي حكم مدينة شرشال، ومن جهتنا فإننا نأخذ برأي هاييدو والذي أعطانا كل الأسباب.

لولا أن شرشال تحتوي على ميناء قابل للتوسيع وبأقل تكلفة، فأراضي شرشال الريفية خصبة، كذلك تحتوي جبالها على مواد كثيرة لبناء السفن البحرية، وأخيرا فهو أقرب طريق للذهاب إلى جزر البليار واسبانيا بحيث تقطع هذه المسافة في مدة 20 ساعة، وهذه العوامل جعلت كارا حسن يفكر في أن يصبح منافسا لعروج في شهرته وقوته نظرا لانتصاراته البرية والبحرية، ودائما حسب هاييدو فإن عروج كان لا يرضى أن ينافسه رجل آخر ولهذه الأسباب قرر عروج مباغتة خصمه وطرده قبل أن يصبح قويا (78) ويتفق ليون الإفريقي(79) مع هاييدو على أن شرشال قد خضعت لبرباروس ولاسيما عروج.

كما اتفق مع هاييدو (80) في رأيه كل من غراموننت وكذلك بونو(81) ومبرسيي(82).

وبعد نجاح الحملة التأديبية التي قام بها عروج ضد شرشال دخل مدينة الجزائر.

ولم يهتم المؤرخون العرب بسرد أسباب فشل عروج في محاولته الأولى في 12 أوت 1516 (83).

إننا ندرس إذا رواية هاييدو التي تعتبر أقرب إلى التصديق منها إلى الخيال. وأراد عروج غداة وصوله اقناع سكان مدينة الجزائر بأنه أتى لتخليصهم من المسيحيين.

وباشـر بحفـر خنـدق ونـصب مدفعيتـه مقابـل القلعـة وبـدأ الهجـوم عليهـا(84) ودائمـا حسب هاييدو فـإن هذه الطريقـة هـي طريقـة القرصـان المتهور والتي تعتبر في كل الحالات طريقة سيئة.

وكان سكان مدينة الجزائر ينظرون اليه بمثابة المخلص لهم من ظلم المسيحيين. وبهذا الأسلوب فإنه يعبر عن انتقامه لفشله مرتين سابقا أمام بجاية. وهنا لا يوجد سوى حصن واحد مقابل مدينة كاملة.

وبعد المناوشات الكلامية بينه وبين جنود القلعة فتح عروج النار عليهم. غير أن ضعف مدفعيته منعته من تحقيق نتائج مرضية، وبعد 20 يوما رأي سكان مدينة الجزائر بأن عروج لم يحقق أي تقدم وأن مجيئه لم يخدمهم في شيء، ولم يحتمل سكان المدينة تصرفات الأتراك لممارستهم العنف والسرقة وغطرستهم مما زاد الوضع سوءا(85).

ولم يتحمل سليم غطرسة الأتراك وسوء معاملتهم له: مما أغضب السكان وجعلهم يتحدون ضدهم. وإذا أراد عروج أن يحافظ على مكانته عليه أن يعمل بسرعة حتى يكسب ثقتهم به.

فعلى عروج ان يتخلص من سليم، وقد اختفي هذا الأخير بالفعل حيث وجد مقتولا في داخل حمامه (86) ويرجح أن عملية قتله قد حدثت في قصره المسمى الجنينة (87) وبعد تخلصه من خصمه سليم نصب عروج نفسه ملكا على سكان مدينة لجزائر. وحتى يثبت حكمه قام بصك العملة، وعمل بعد ذ لك على تقوية وسائل دفاع المدينة.

واعتبر نفسه أنه غير ملزم باحترام المعاهدة السابقة المبرمة مع الإسبان، فعمد إلى فرض مراقبة شديدة على نبع الماء بحيث لا يسمح لحامية القلعة والسفن بالتزود بالماء. لذا يتوجب عليهم جلب الماء من مايوركا (88).

ان الأرشيف الإسباني يحتفظ بالرسائل اليائسة التي بعثها نيكولاس الخامس حاكم الحصن التي يذكر فيها انه في تاريخ 8 أوت 1516 لم يكن

يوجد أكثر من15 قربة من الماء لمؤونة أكثر من200 شخص محاصرين داخل قلعة البنيون. لذلك كان مرغما على الذهاب بنفسه إلى مايوركا للبحث عن الماء والبسكويت وطعام آخر(لأنه كماهو معلوم لا يستطيع الاسبان الدخول إلى مدينة الجزائر) كما يلزمهم المال دفع مبلغ 1286 "ديوكاتس" لقادة السفن مع العلم أن سكان مدينة الجزائر لا يدفعون مثل هذه الضرائب. وفي تاريخ 15 أوت استمر نقص الماء في قلعة البنيون بحيث مات أشخاص بعد أن خلطوا الخمر بماء البحر وشربوه أو نتيجة لأكل خبز تم صنعه بماء البحر، 150 فردا رجالا ونساء يقيمون في الجزر القريبة من الحصن تم اجلاؤهم. ورغم هذا الاجلاء فإن من يبقى سيموت من العطش إذا لم تحمل اليهم السفينة القادمة من ميوركا بعض البراميل من الماء. وكان الحل عندهم أن يقفزوا إلى الأرض في النهار حيث ينعدم وجود الماء ويموتون في قتالهم مع المغاربة أفضل مما يموتون عطشا.

وقد بقي 200 رجل من رجال الموقع ولكننا لا نستطيع الاعتماد إلا على 100 رجل منهم(أما الأخرون فقد كانوا من الفلاحين المايوركيين ولم يكن لديهم أسلحة حيث كانت تبدو وكأنها مخبأة في الحفر(89) وخلال هذا الوقت كان عروج يحصن مواقعه.

ودائما حسب الرسائل الإسبانية التي اعلمتنا بأن هناك مدافع جزائرية: حيث قام عروج بقدر ما استطاع من التحصينات تبعا لوصف السرايا المدفعية:

- مدخل باب الواد(باب العرب، يوجد منجنيق وقذافة حربية تجرها عجلة نقل (طمبر).

- من جهة البحر: يوجد قطعتين حربيتين تزن الأولى 12 ليبرة والثانية 8 ليبرات(الليبرة = 500غرام).

- في مستودعات الأسلحة: منجنيق يمكنه اطلاق قذائف تزن الواحدة 30 ليبرة من الحجارة.

- إلى الأمام باتجاه صحن البرج: منجنيقان تزن قذيفة الأول 14 ليبرة والثاني 9 ليبرات(وهما لا يقذفان كثيرا من ذلك المكان، لان الإسبان لم يتركاهما يتستقران ويطلقون النار على مقدمتها) كما يوجد كذلك أربع فرجات في الحائط بحيث لا يتم اطلاق النار منها.

- في زاوية البرج الخلفية: يوجد مدفعان تزن قذيفة الأولى 55 ليبرة والأخرى 20 ليبرة.

- في المقدمة إلى الأمام يوجد كوة (فتحة) لمنجنيق آخر والذي يطل على طرف الجزيرة ويصل وزن قذيفته إلى 20 ليبرة.

- مدخل باب عزون: منجنيق في المدخل واثنان في الأعلى.

- في أعلى البرج يوجد منجنيق ومدفع تزن قذيفته(2) ليبرة ويزن هذا المدفع675 كيلوغرام وطوله(3.50 متر).

- ومنجنيق آخر في داخل برج جبيبل(GIBILE)بدون شك أحد أشهر الأبراج في القصبة: منطقة الجبل).

- منجنيق آخر على السور الملامس لحقل الكروم بالقرب من الطريق القادم من مليانة (90).

في 12 أوت هاجم عروج بدون نجاح من جهة أخرى، وخلال هذا الوقت وبناء على طلب مستعجل من التحصينات، كان هناك حملة قد تم تجهيزها في وهران. وقد تكلمنا كثيرا عن تأثير يحيى بن سليم التومي في تنظيم هذه الحملة. وروى هاييدو بأن ابن الشيخ الشاب كان بعد اغتيال والده في وهران حيث وضع تحت الحماية الإسبانية، وشجعوه على تجهيز حملة تأديبية كي ينتقم لأبيه.

والحالة هذه فإن الوثائق الإسبانية في ذلك العصر تثبت بأنه لم يكن هناك شيء. فسليم التومي لم يكن حليفهم تماما كما أن موقعه لم يكن دائما واضحا.

وقد وصلت رسالة من دييغو دو فيرا مؤرخة في 1516/08/18 إلى مدينة الجزائر تتحدث عن حملة تأديبية موجهة إلى ابن الشيخ الذي تم اغتياله مما يبرهن على أنهم ظلوا في المدينة ولم يحدث شيئ للأعداء أبدا ومن المحتمل أن عروج قد تصالح مع عائلة الضحية بتدخل من الولي المسلم سيدي عبدالرحمان خليفة عالم اللاهوت في القرن الخامس عشر نسيب قبيلة ثعلبة، بحيث أن ابنته كانت متزوجة بالإبن البكر لأمير وأميرة هذه القبيلة (91).

وبالمقابل فإن الحملة مبررة تماما بواسطة القلق الذي أثاره وصول عائلة بارباروس إلى مدينة لجزائر، وقلة الموارد واللوازم في قلعة البنيون ثم الخوف من فقدان وخسارة هذا الموقع الاستراتيجي الهام.

حملة دييغو دوفيرا:

غادر الأسطول الإسباني قرطاجنة في 30 سبتمبر سنة 1516. وأنه من الصعب مرة أخرى تقدير أهمية هذه الحملة من خلال الوثائق الإسبانية، فحسب مخطوطه "زهرة النيرات" فإن الحملة تتكون من320 سفينة حربية وسفينة نقل وتحمل على متنها 15000 مقاتل(92).

أما مترجم هذه المخطوطة ألفونس روسو فقد كتب مصححا بأن الحملة تتكون من 60-80 سفينة شراعية تحمل على متنها من 8000-10.000 رجل.(93). ولكن بالاعتماد على الوثائق الإسبانية فقد اعتبر بأن الحملة التي قادها دييغو دو فيرا كانت تتكون من حوالي ثلاثين سفينة تحمل على متنها 1000 جندي و2000 من البحارة(94).

وقد رسا هذا الجيش بشكل فوضوي بالقرب من الشاطئ مما جعل العدو يتنبه ويأخذ استعداده. هذا ما ذكره حاكم قلعة البنيون نيكولاس الخامس في التقرير الذي لم يصل إلى دييغو دوفيرا قائد الحملة العسكرية (95). وأضاف أيضا وأمام هذه الفوضى وعدم التبصر فإن هؤلاء الجنود الأذكياء من الأتراك قاموا بتجميع كميات كبيرة من المؤونة والذخيرة وجمعوا حولهم عددا كبيرا من المغاربة الذين باستطاعتهم المحاربة ضد أكبر الجيوش(96). ان نيكولاس الخامس سيعرف بنفسه الأماكن التي يجب القتال

منها. فقد اختار صخرة كبيرة بالقرب من مدخل الواد. يستطيع المهاجمون الاختفاء خلفها تماما كما أن حمايتهم من الخلف مؤمنة(مضمونة) (97). وخلال هذا الوقت كانت المدفعية الموجودة على الجزيرة تدك المدينة. لكن دييغو دوفيرا رفض هذه الخطة وفضل مهاجمة المدينة من الأعلى بحيث يسمح فقط بالقصف على المناطق المرتفعة وهذا يجعل تأثير المدفعة الموجودة دخل القلعة قليلا وبعيدا.

وزيادة على ذلك فقد ارتكب خطأ خطيرا بتقسيم رجاله إلى أربع فرق ومهاجمة المدينة من أربع نقاط مختلفة.

وقد نزعج عروج من الجيوش المرابطة تحت الأسوار وكعادته قرر الهجوم عليهم وأخذهم على حين غره ومباغتتهم بسرعة. ولم ينتظر حتى يهجموا عليه بل خرج فجأة ووجد المخيم بلا قائد وبلا حراسة فهجم عليهم وعمل مذبحة في صفوف الأعداء. وقد أعطى هذا الهجوم الناجح نفسا جديدا لمواقع الدفاع اليقظة والخائفة في نفس الوقت (98). واقتحمهم عروج بسهولة وعمل فيهم تقتيلا حتى تعب. أجبر دييغوا دوفيرا وابنه على الاختباء جزء من النهار بين الصخور قبل أن يتمكنوا من النجاة بأنفسهم والالتحاق بسفنهم. وأحرز الولد الأكبر (البكر لعائلة باربروس نصرا كبيرا مما جعل سلطته قوية وثابتة في المدينة).

لكن الجماعات التي أحضرها عروج معه كانت خليطا من البلدان التي تم الاستيلاء عليها. ولاننسى أن عروج، هو قبل كل شيء، قرصان من قراصنة البحر وأن جماعته هم مجموعة وليس جيشا منظما. فبرجوازيو مدينة الجزائر فقدوا عقولهم، هؤلاء التجار الهادئون المسالمون رأوا وفي عيونهم الهلع والخوف هذه الجماعات الشاذة الغريبة والغير متجانسة تتسكع في شوارع مدينتهم وهي تشكل تهديدا لنسائهم وبضائعهم وقلعة البنيون مازالت في يد الأعداء. فماذا فعل هؤلاء التجار؟ هل قاموا حقا بفتح محادثات مع الإسبان؟(99) الاحتمال الأكبر هو أنهم اتفقوا مع قبائل المتيجة وقاموا بتدبير مؤامرة في الخريف ضد عروج وجماعته: فقد دخل رجال القبائل الريفية إلى المدينة وهم مسلحون وساعدهم في ذلك وجود الأسواق

المعتادة وبينما كان بعضهم يقوم باحراق سفن القراصنة التي سحبوها فوق شاطئ باب الواد وعلى مصب واد مراسل، كان الآخرون يهاجمون رجال عروج داخل المدينة.

لسوء حظهم فإن عروج كان رجل المهمات الصعبة، ففي يوم الجمعة عندما كان الأعيان والإشراف والمسؤولون عن المؤامرة مجتمعين في المسجد أثناء وقت الصلاة، أغلق عليهم عروج الأبواب أوقع هؤلاء الجناة في الفخ وقطع رؤوسهم ورماهم في الشوارع. وهكذا سواء بارادتهم ومشيئتهم أو رغما عنهم أصبحوا خاضعين ومطيعين(100).

نحن في سنة 1517 في هذا العالم الواسع الارجاء، فبينما كان سليم الأول في القاهرة وشارل الخامس يتوج ملكا على اسبانيا كان عروج في مدينته الصغيرة يحضر للمستقبل بتحصين تسليح وتنظيم المدينة وكان أخوه خير الدين مقيما في دلس آخذا على عاتقه تنظيم المقاطعة الشرقية بمساعدة رئيس القبائل ابن القاضي.

غزو تلمسان وموت عروج:

ان سيطرة القراصنة الأتراك على مدينة الجزائر لايمكن أن تستمر دون أن تقلق جيرانها.

ونظر ملك تنس حميد العيد الذي شهد نكبة سليم التومي عندما خضعوا للاسبان بعين مملوءة بالحقد تجاه عروج ووجوده في مدينة الجزئر. وقام بتجهيز حملة ضده، وكعادته فإن عروج لم ينتظر بل مشى لملاقات خصمه حميد العيد وباغته على حين غرة في عقر داره ولكنه لم يكن يثق بعد بأمانة وصدق اداريه وساسته، فقبل سفره لملاقاة خصمه استدعى أخاه خير الدين من دلس وعهد اليه القيام بحكم المدينة في غيابه ريثما يعود ثم بعد ذلك أخذ احتياطه وحذره ضد المتمردين العصاة وذلك بأن أخذ معه مايقارب العشرين من الوجهاء والأعيان كرهائن. وبهذا فقد ارتاح فكره وتفرغ لقيادة وتنظيم حملته.

ونتذكر باختصار مراحل هذه الغزوة والتي كانت نهايتها سيئة لبكر عائلة برباروس:

- التقى عروج مع جيش ملك تنس في سهل الشلف وانتصر عروج في هذه المعركة واحتل تنس في جوان(1571).

- وفد عن سكان تلمسان جاء يطلب المساعدة والحماية ضد السلطان أبي حمو الذي تحالف مع الإسبان ضد سلطانهم الشرعي أبوزيان(101).

- عروج يمشي إلى تلمسان حيث استلم الحكم بعد أن قتل أبوزيان.

- حاصر الإسبان والخونة الموالين للملك المهزوم عروج، واستطاع هذا الأخير الهرب لكنهم لاحقوه وقتلوه في ماي 1518 ولانعرف بالضبط أين قتل هل هو في تلمسان أو في جنوبها؟ وذلك رغم كل الأبحاث لتي قام بها الباحثون والتي نصبت كلها على هذا السؤال الهام جدا(102).

خير الدين:

ان موت عروج شكل خسارة كبيرة وثقيلة جدا. الجيوش الإسبانية بقيادة ماركيز دو كوماريز يبدو أنها أرادت متابعة سيرها حتى مدينة الجزائر لاتمام نصرهم... مدينة الجزائر التي كان خير الدين محروم فيها من أحسن الفرق (الجيوش) التي كانت تابعة لعروج، وقد حلم خير الدين بكل جدية بالابحار ثانية إلى دلس أو جيجل تاركا سكان مدينة الجزائر لقدرهم الحزين(103).

لكن الجنود والقرصنة سخرو منه وكذلك كل الذين استطاعوا الفرار بعد هزيمة عروج وكل الذين جاؤوا متطوعين من أجل الملك (104).
وهاهو يتصرف بحرية وحسب طريقته من أجل الحفاظ على المدينة ومدعما في ذلك باجماع الأمة.

ان الوضع سيء للغاية: فقد تخلى ابن القاضي الحليف القبائلي عن الصفوف، وتحديد أسباب هذا التخلي صعبة: هل كان اتهامه بالخيانة أثناء

سير المعركة ظلما أو أنه شعر بأن هذه الوشاية هي تهديد مباشر له؟(105). هل كان مدفوعا من سلطان تونس الذي يرغب في فك هذا التحالف مع بارباروس الذي أصبح قويا جدا(106)، أو ببساطة أنه لم يغفر أبدا لموت سليم التومي الذي كان أحد أقربائه؟(107).

ومهما يكن الأمر فقد انسحب إلى جباله والتفت حوله قبائل آيت يحيى، أيت بوشايب وآيت فراوسن (108)، وقام بتحصين مملكته مملكة الكوكو التي لم تدم إلا قليلا حتى في عصر ازدهاره وفخامته كقرية ريفية يسكنها 1600 نسمة، والتي تجثم على الصخور الوعرة، بحيث جعلت الدفاع عنها سهلا (109)، لكنها كانت مجهزة بجيش مهم جدا قوامه (5000 رجل يحملون سلاحا و1500 حصان) وذلك لحفظ النظام في الداخل والقيام بحملات وغزوات في الخارج.

في هذه الاقطاعة (منطقة النفوز) خضع للمحاولات السرية الإسبانية المستعجلة. بحيث رغبوا بالشروع في محادثات التحالف معه يفرضون عليه من خلالها التحلي عن بارباروس(110).

فبعد أن كان بن القاضي حليفا فعالا لخير الدين أصبح الآن عدوا لدودا يشكل تهديد دائما له.

وفي هذه الظروف الصعبة وأمام هذه الأخطار الكثيرة فإن ذكاء خير الدين جعله يفهم بأنه يحتاج إلى مساعدة قوية.

وفتح سليم الأول سلطان استانبول مصر وقدم نفسه للناس على أنه وريث الخلفاء الكبار والعظام.

ومن الطبيعي جدا بالنسبة لمدينة اسلامية مهددة من قبل المسيحية أن تضع نفسها تحت حماية أمير المؤمنين لذا فقد طلب خير الدين من السلطان العون والمساعدة مقابل الاعتراف بسلطته، ودفع ضريبة أو ضمان زيادة قوة الأتراك في بلاد البربر(111)، لهذا أرسل الحاج حسين"الشخصية

المعتبرة" إلى استانبول ومعه مجموعة من السفن الحربية تتكون من 4 سفن محملة بالهدايا الثمينة (112)، ليحمل اقتراح حمايته واعلان بارباروس تبعيته له.

وهانحن نعود ثانية إلى التواريخ المختلفة للمؤرخين الذين يروون ويصفون هذه الأعمال. فالغزوات وزهرة النيرات التي تستوحي بوضوح من الغزوات قد ذكرت تاريخا هو 926 هجرية الموافق لسنة 1520م مما يجعلنا نضع هذه الخطوات بعد الهجوم الإسباني بقيادة هيجو دو مونكاد سنة(1518) حيث لم يكن سليم موجودا في ذلك التاريخ 1520، بل السلطان سليمان هو الذي كان يحكم في استانبول، ونفس الوقائع التاريخية تتحدث عن السلطان سليم، أما فيما يخص المعلومات التي استطعنا أن نجدها في العصر الحاضر مستشيرين بذلك المؤلفين الذين يذكرون تاريخ الامبراطورية العثمانية وهي كمايلي: في سنة 1518 بعد شهور قليلة من موت عروج، تعرف خيرالدين على سليم الأول(113)،. وفي السنة الموالية أي سنة 1519 في الخامس عشر من شهر ماي، ثم قبول الاقتراح الذي قدمه خيرالدين إلى السلطان ودخلت المدينة تحت الحماية العثمانية (114).

اننا نتخيل جيدا كيف تلقى السلطان هذا الاقتراح الذي ينص على الحاق جزء من الساحل المغربي، هذا الجزء الذي يتمتع بامكانيات استرتيجية في قلب أراضي حوض البحر الأبيض المتوسط.(115)

وسيرسل السلطان قريبا 2000 جندي من الجنود الانكشاريين الاسطوريين وهم من خيرة مقاتلي الجيش التركي(116). كذلك سيبعث مدافع ووحدة عسكرية تتألف من 4000 متطوع (هؤلاء المتطوعون غالبيتهم من الطبقات المسحوقة(117)، دفعهم إلى ذلك الاغراءات المقدمة لكل من يريد الذهاب الي بلاد البربر، وهذا يعني حقوق الامتياز التي أعجبت وأفرحت هؤلاء "الانكشاريين". وبالإضافة إلى ذلك فقد أصدر السلطان فرمانا (أمرا سلطانيا) يوضح فيه بأنه قبل ولاء الجزائريين له ووافق على حمايته لهم وأنه يعتبرهم من الآن فصاعد في قائمة المخلصين الأمناء(118).

سواء كانت الريح ساكنة او عكس خط سيرهم(178) ولا يستخدمون الشراع في طريق عودتهم واثناء تجوالهم في انتظار فريستهم(179).

ومن هنا تأتي اهمية المجدفين فهم مدربون، مطيعون، مقتصدون جدا "الحصة اليومية للواحد من الطعام تتألف من ثلاثة قطع من البسكوت وكمية من الماء مخلوطة بالخل (180) وهناك مجدفون لا مثيل لهم يمتلكون القوة التي يمتلكها رياس مدينة الجزائر(181).

وكان يسود السفن نظاما حديديا صارما: فالمجدفون كانوا مربطون إلى أماكنهم ولا يتحركون اثناء عملية التجديف(182).
ولا يسمح لأحد منهم بالتحرك من مكانه ما عدا ابن الباشا... (183).
هذه الخفة والسرعة في الحركة هي التي ستشكل الثروة من القرصنة الجزائرية، وروى سيرفونتيس قائلا على لسان احد بحارة مدينة الجزائر: ونحن كذلك مشينا بخفة فائقة مثل سرعة البرق وعندما هوجمنا كنا نسير باتجاه الريح دون أي عياء او عرقلة.

ولكن المسيحي بالغ في عظمته بحيث بدا له انه من غير اللائق به ان يأخذ مجدافا في غمار هذه المجازفة(184).

والمدافع القليلة التي توجد على ظهر السفينة جعلت السير بطيئا، وزيادة على ذلك فإن المدافع كانت موجودة متراصة الواحد جانب الاخر، بحيث لا يبقى مكانا كافيا لتحريك هذه المدافع إلى الخلف(185).

ان سفن القراصنة كانت قليلة الفعالية لأنها كانت على العموم اكثر انخفاضا فوق الماء من تلك التي يريدون اقتناصها، إلى درجة ان ظهر السفينة كان دائما مبللا بلجج البحر(186)، ويحدث الهجوم اولا ثم يليه الالتحام بالسلاح الأبيض، وبعد العودة يتم تفحص السفن بعناية فائقة، وشحذ السيوف ثم تشحيمها من جديد(187) ان عملية القرصنة لا تدوم ابدا اكثر من 50 يوما بل نادرا ما تصل إلى هذه المدة(188)، وزيادة على ذلك فهم

لا يخرجون في فصل الشتاء لأنه هو الوقت الذي يبدأون فيه باصلاح سفنهم وتفقدها(189).

والنظام الذي يسود ظهر السفن يكون صارما عندما تحضر الفرائس ويتعلق الأمر بتوزيع الغنائم.

إن عملية توزيع الغنائم لا تتم هكذا بالصدفة، فكما قلنا: ان الدولة تعيش من القرصنة ولا تقبل أن تكون مظلومة، فالحصص منظمة بشكل جيد. طاقم السفينة كله لا يتقاضى أي راتب، لكنهم يكافئون على الغنائم لأنهم لو كانوا يتقاضون مرتباتهم فإن ذلك لا يشجعهم على القتال من طوع أنفسهم(190). ان كاتب السفينة مع الرايس والموظفون الأساسيون يقومون بجرد البضاعة والأشياء الأخرى التي توجد في السفينة وتباع كلها بأثمان جيدة ثم تتم عملية التوزيع حسب حالة كل واحد ومرتبته(191).

تحتفظ الدولة بالقبطان القائد، الكاتب والبحار وكذلك بهيكل السفينة، وعتاد السفينة مثل المدافع، الذخيرة، أوالعتاد الحربي للسفن التي تم القاء القبض عليها.

حيث يحتفظ الباشا بـ 12% من البضائع والعبيد 1% تخصص لصيانة الرصيف والميناء 1% تحفظ لصيانة المساجد.
بقية الغنائم تقسم إلى قسمين:

نصفها يعود إلى مجهز السفينة (صاحبها)، وإلى كل من ساهموا في تجهيز نفقات العملية. لأن حملة كهذه كانت عملا هاما جدا وكل الناس في مدينة الجزائر انتفعوا منها، كما ان هناك عدد كبير من السكان المدنيين ساهموا بأموالهم في هذه العملية آملين في استرداد هذه الأموال مع الفائدة او الربح(192). حتى إن النساء ذهبن إلى حد المشاركة بحليهن وكل المساهمين يحصلون على ارباحهم من الغنائم وخصص النصف الاخر لطاقم السفينة والجنود.

وفي هذا التقسيم الأخير يحصل الرايس (قائد السفينة) على 40 حصة. ويحصل البحارة والملاحون على ثلاثة حصص والجنود على نصف حصة. ولا يدخل في هذه الحصص المبالغ التي وجدت في السفينة وكذلك الأموال التي نتجت عن عملية بيع البضائع.

وكان دائما السارقون والمسروقون في عملية القرصنة جاهزين للنقاش والتفاهم، ومن هنا نشأت شبكة واسعة للتواطؤ والتستر على اختفاء البضائع المسروقة(193). ويأتي كثير من التجار الأوروبيين إلى الجزائر للتزود بهذه البضاعة التي جلبها القراصنة رغم المنع المتكرر لهم من قبل حكوماتهم.

كما يجب التذكير بانه يمنع في اسبانيا شراء البضائع المنهوبة والمسروقة وانه لا يسمح بشراء بضائع القراصنة، ولكن هذه البضاعة وجدت من يأخذها بسهولة باتجاه ايطاليا وميناء ليفورن(194). وللتغلب على عملية منع شراء هذه البضاعة من القراصنة فإن اليهود لعبوا دور الوسيط بين التجار المسيحين، حيث أصبح ميناء ليفورن الإيطالي هو المكان الحقيقي الذي تدور فيه هذه التجار غير المشروعة.

فالقرصنة إذا شجعت التجار بدل ان يفروا ويهربوا، الاقطاعيون شبعوا من الفوائد والأرباح واستخدموها وقاموا بأعمال البناء، بحيث صار مجموع السكان أغنياء من تجارة البضائع المسروقة(195).
وكما ذكر هاييدو "عندما يعود القراصنة تكون مدينة الجزائر كلها فرحة ومسرورة لأن التجار يشترون العبيد والبضائع التي حملها القراصنة اليهم ولان تجار المدينة باعوا كل ما عندهم في محلاتهم من لباس ومؤونة لهؤلاء القادمين من البحر: ولا همّ لهم سوى الأكل والشرب واللهو(196).

الأسرى والبضاعة البشرية:

فالرجال، كانوا البضاعة الرائجة الأكثر قيمة وهي التي تكررت كثيرا في غنائم القراصنة(197). ففي سنة 1533 كان يوجد في مدينة الجزائر 7000 من العبيد(198) حيث شكلت عملية أسرهم ومعاملتهم وبيعهم وشراءهم ثانية قطاعا قويا هاما في النشاط التجاري(199).

سيده(208). وحسب كل التقارير المنزلية فإنه ربما يقع أحدهم مع رجل طيب والأخر مع رجل قاس غليظ الطباع، دون ان يكون هذا العبد مكرها على ذلك، فعرف اللاجئون الأندلسيون بحقدهم وعداوتهم ضد المسيحيين الذين يحافظون على سمعة وشهرة سادتهم القساة. ولكن هذه ليست عامة.

فهناك سادة يوصفون بإنسانيتهم، حيث روى لنا أرندا في القرن اللاحق مطولا عن محادثاته الأخوية ووجبات الطعام التي تناولها مع سيده وهو يقول: "أكلت مع سيدي في نفس الطبق الذي يأكل فيه وكنت جالسا إلى جانبه والأرجل متشابكة على طريقة التركية...(209).

وبشكل عام فإنهم يعيشون جيدا فكل اهتمام البرابرة هو حتى لا تتضرر أملاكهم ولا تتعرض للتلف والهلاك(210).
وفيما يخص الأسرى الذين يمكن مبادلتهم بفدية كبيرة فقد منحوا الاستراحة والأمن حتى يحين وقت شرائهم ثانية(211).

وفي هذه الحالة عندما يتفق السيد والعبد على ثمن الفدية يمكن العبد الذهاب والرجوع كما يحلو له في ظروف سهلة للرجوع إلى المدينة قبل اغلاق الأبواب، حيث ينام في المكان المخصص له(212)، وهناك يتم ربطهم بسلسلة من الحديد ويدل هذا بالأحرى على استرجاعهم وبقائهم في ظل العبودية(213). أما العبيد المحليون فلا يربطون بهذه السلاسل، وعادة ما تخفف إلى حلقات من الحديد مختومة بالشمع الأحمر، ثم يربطون إلى وتد، وأن ربطهم بسلاسل الحديد كان وضعا استثنائيا.

فإما إن يكون رب العمل قد أراد بأن بيع عبده بسرعة وبثمن أغلى، وإما أن يكون ذلك عقابا للعبد بسبب تمرده وعصيانه، او ربما يكون قد ثبت عداء العبد للإسلام، وهكذا في النهاية اما أن يكون هناك أسطول او حامية مسيحية على مسافة قريبة جعلته يخشى على العبيد من عمليات الفرار(214).

وقد تم إعفاء العبيد الأغنياء من السجن المؤبد، حيث خضعوا للسجن مرة او مرتين في السنة، وكل الأسرى الآخرين إلا إذا تأخر وصول الفدية،

كما يريدون هكذا اجبارهم على الكتابة بطريقة تستوجب التعجيل(215) والضغط على عائلاتهم من اجل دفع الفدية في أقرب وقت.

إن الضرر الكبير الذي ينجم عن اعطاء العبيد نصف الحرية، هو انهم لا يحصلون على الغذاء لذا يتوجب عليهم اظهار مهارتهم المخبأة، فيضطرون في بعض الأحيان إلى السرقة لتوفير قوتهم ومؤونتهم(216).

لقد صرنا بعيدين عن روايات الأباء المنقذين وعن كتابات ذلك العصر التي ترينا هؤلاء الأشقياء، اصحاب الحظ السيئ، وهم مقيدون بالسلاسل الحديدية بحيث لا يستطيعون التحرك من ثقلها(217). وبعيدون أيضا عن أوصاف التعذيب الفظيع الذي ظهر بجلاء وأثار شفقة النفوس الخيرة والمحبة لبلادها فبدؤوا يحثون الناس على المساهمة بسخاء وكرم في جمع الأموال ليفتدوا بها الأسرى. ودائما فإن أعمال العنف لها على حد تعبيرهم مبرراتها عند أسيادهم فأعمال التعذيب والتنكيل والقسوة عادة ما يكون لها علاقة بمحاولات الهرب وأعمال العنف التي يقوم بها العبيد ضد معلميهم وسادتهم او قتل وتعذيب المسلمين انتقاما منهم(218) في بعض الأحيان حيث تعتبر هذه الأعمال وسيلة فعالة لدفعهم بحماس من اجل الحصول على حريتهم(219).

ولكن على العموم فإن مصيرهم هذا لا يحسدون عليه، إلا أنه أقل مصيبة من الصورة التي اعطيت لنا عنهم. ويروي لنا فوجير دوتاسي مستهزئا عن الموكب الاحتفالي الذي نظمه رجال الدين والرهبان عند وصولهم إلى اسبانيا وهم يعرضون الأسرى المحررين الذين استردوهم بعد دفع الفدية حيث كانوا يرتدون برانيسهم ولحاهم طويلة وفي أجسادهم السلاسل الحديدية التي لم يحملوها في حياتهم من قبل(220).
ألم تكن هذه السلاسل خلال فترة العبودية بالنسبة لهم أسوأ من العنف والقهر؟(221).

LES BAGNES: الحمامات

ان كلمة سجن جاءت من الكلمة الإسبانية بانو وتعني الحمام: في البداية كان العبيد يسجنون في الحمامات خلال فترة الليل. وفيما بعد تزايد عددهم وبنيت لهم عمارات خاصة عرفت باسم السجن.

ان داخل السجن شبيه بكل المنازل في مدينة الجزائر، حيث يتكون من ساحة داخلية محاطة برواق مرتفع وقد هيأت العمارات. بحيث قسمت إلى غرف تتسع الواحدة منها إلى 15 – 20 شخصا، ولا يوجد أي قطعة أثاث داخلها حيث ينام الأسرى فوق حصائر منسوجة من القصب أو من الحلفاء، وفي بعض الأحيان ينامون فوق نوع من الأسرة العالية التي تشبه إلى حد ما أسرة التخييم والتي يقومون بصناعاتها بأنفسهم... أما الحارس فعادة ما يكون من المرتدين الجاحدين. وعمل الحراسة مرغوب فيه لان صاحبه يقوم بسرقة العديد من الهدايا لمرؤوسية.

ويقتصر دور الحارس على حفظ بعض الأنظمة داخل السجن ويراقب توزيع القوت والمؤن وكذلك خروج العبيد المخصصين للعمل ويقتضي أيضا ان تكون الممرات والغرف مبيضة بالجير (الكلس) مرة في الأسبوع، كما يتاكد من ان كل الأسرى قد عادوا قبل الوقت الذي يمنع فيه التجول وتطفأ الأنوار(223).

وفي نهاية القرن فإن الرياس الرئيسيون والملاك الكبار للعبيد كانت لهم سجونهم الخاصة، لكن في سنة 1531 لم يكن سوى سجن واحد فقط في مدينة الجزائر والذي يسمى بسجن باربروس(224).

حيث يستطيع ان يأتي اليه عبيد المخزن ليناموا فيه كذلك العبيد الذين يمتلكهم الخواص، يمكنهم ان يأتوا للنوم في هذا السجن لانه لا يوجد اماكن عند الخواص كي يسكن فيها هؤلاء العبيد. ويسوق كثير من الخواص أسراهم إلى هذه السجون لانهم سيتم تحريرهم ولأن هذه السجون يمكنها ان تستوعبهم وتوفر لهم أسباب الراحة والأمن حتى يأتي موعد تحريرهم(225).

وهنـاك، أثنـاء الليـل حيث تكـون الأبـواب مغلقـة، تـتم عمليـة شـراء ومقايضة الأشياء المسروقة في ذلك اليوم بين العبيد. ويعيش القسم الأكبر من العبيد على ما يسرقونه من أشياء، حيث يقومون ببيع ما سرقوه في ذلك اليوم(226). وفي داخل تلك السجون يتم طبخ الدجاج والأرانب المسروقة على نار خفيفة لان الأسياد لا يهتمون كثيرا بتغذية عبيدهم الذين بدورهم لا يتلقون وجبة منظمة إلا عندما يحكم عليهم بالأشغال الشاقة للعمل في الطرقات والحقول، وبهذه المناسبات يوزع عليهم قطعتين من البسكويت في اليوم وكمية قليلة من دقيق الشعير مخصصة لصنع العصيدة(227)، اما بالنسبة للباسهم فإنهم يتلقون 5 أذرع من النسيج الكتان(228) مرة واحدة كل سنة، ويصنعون منها بأنفسهم قميصا وسروالا صغيرا(229).

وبانتظار عملية اطلاق سراحهم المفترضة وبفضل الحرية النسبية التي تسمح لهم بالذهاب والعودة مرورا بالمدينة فإن الأسرى يبحثون عن كل الوسائل والطرق للهرب.

وربما يكون هذا بالصعود سرا على ظهر سفينة تجارية وتعرضهم هذه الطريقة إلى أخطار، لأن السفن يتم تفتيشها قبل سفرها. وزيادة على ذلك فإن أسيادهم ومالكيهم يقومون بتقييدهم بالسلاسل عندما ترسو أي سفينة من بلادهم في الميناء وذلك اجتنابا لكل محاولات الفرار.

- وربما أيضا يتسللون أثناء حدوث قتال حيث يعملون كمجدفين على ظهر السفن الحربية (ولكنهم بشكل عام كانوا مقيدين بالسلاسل على ظهور هذه السفن). او ربما تتم عملية الفرار عندما تتوقف السفن في ميناء مسيحي للتزود بالماء.
- وفي بعض الأحيان يحاولون الالتحاق بوهران بدون مرشد وذلك بالمشي ليلا: حيث يحملون معهم خرج يحتوي على عشرة ليبرات من البسكويت (الليبرة = 500 غرام)، والحلوى التي كانوا يأكلونها مع الأعشاب والحشائش الموجودة في الحقول، وثلاثة أزواج من الأحذية وكانوا يتبعون طريق الساحل لانهم يجهلون طبوغرافيا وخريطة هذه البلاد.
- ولكن خلال بعض الأوقات كانوا يتعبون من المشي فوق السباخات اليابسة والمرتفعات حيث كانوا يشعرون بالألم الشديد من كثرة التعب،

ويقول لوجير دوتاسي ايرونيز "ان غذائي قد تبلل وملابسي تمزقت من الأشواك وفسدت احذيتي وخارت قواي وكان من المستحيل ان أخطوخطوة واحدة وهاجمني الجوع والمني العطش ولم استطع الخروج من هذا الطريق الذي قادني مرة أخرى إلى سيدي لأنني لم أكن أعرف الطريق الذي يوصل إلى وهران(230).

- ويمكنهم أيضا محاولة سرقة أو شراء زورق للالتحاق بمدينة صديقة مثل وهران أو بجاية.

- كذلك يمكنهم توكيل أمرهم إلى أحد المرتدين الجاحدين حيث ينتهز هذا الأخير الفرصة للرجوع إلى بلده. ولكن أكبر مشكلة كانوا يعانون منها هي ان المغاربة العرب لا يسمحون لأي مرتد شراء أوامتلاك قارب بل يسمح لهم فقط بشراء أو امتلاك سفن كبيرة لاستعمالها في أغراض القرصنة لأنهم يخشون من الذي يشتري زورقا، وخاصة إذا كان اسبانيا فإنهم لا يستعملونه إلا للهرب به إلى بلد مسيحي(231).

- واخيرا يوجد المهربون قادمون من اسبانيا والذين يخاطرون بانفسهم للوصول إلى الساحل كي يحملوا معهم من يستطعون تهريبه ويكفي لهذه العملية ان يتفق هؤلاء المهربون مع زبائنهم بالتواجد في مكان معين وفي وقت محدد، لأن الحملات على شواطئ الأعداء لم تكن مقتصرة على الجزائريين فقط، فالقرصنة المسيحية في البحر الأبيض المتوسط لم تتوقف أبداً، ولازالت مستمرة حتى في الساعات الحالكة الظلام(232).

- وهكذا فإن القراصنة الجنويين والفلنسيين وصلوا في الليل على أبواب مدينة الجزائر وأسروا كثيرا من المغاربة الذين كان من عاداتهم التجمع لقضاء الليل في المخبأ (الملجأ)(233) وروي الأب غاسير فيما بعد عن مغامرات كثير من الأطفال والشباب الذين تم اختطافهم من قبل قرصان جنوي، حيث كان هؤلاء الشباب الجزائريون يلهون ويلعبون بحذر على شاطئ البحر في يوم من أيام الربيع(234).

ان امكانيات الفرار كبيرة والمحاولات كثيرة ايضا، لكن نجاحها يبقى صعبا جدا مثلما برهن على ذلك المحاولات العديدة التي قام بها سيرفونتيس قبل ان يتم تحريره سنة 1580.

هذا التجمع السكاني الهامشي قد شغل بال الحكومات، فهذا خير الدين منشغلا بالتحضيرات لسفره إلى استانبول كان قلقا جدا نظرا لعدد العبيد الخونة الذين كانوا في مدينة الجزائر، حيث يزيد عددهم على 7000 وتساءل مع نفسه قائلا "إذا سافرت وتركت كل هؤلاء المسيحيين في المدينة يمكنهم ان يجتمعوا مع بعضهم ويسببوا الفوضى(235)" وفي الواقع فقد تحدثوا عن محاولة عصيان وتمرد هامة جدا قام بها هؤلاء العبيد لكي يجلبوا انتباه مدوني الأخبار التاريخية (كتبة التاريخ).

ان ابن قائد السفن الحربية الإسبانية (الذي قال عنه غزوات خير الدين خطأ بانه ابن أحد قضاة جزيرة رودس) وهو دون جون دوبورتونتو الذي كان قد اسره خير الدين سنة 152 اثناء معركة حيث اسر معه في نفس الوقت اربعة سفن حربية(236). قد نظم مؤامرة هو ومرافقوه في النكبة هدفها استعادة سيادة المدينة او انقاذ انفسهم بالسلاح(237)، واكتشف خير الدين خططهم بواسطة انذار او وشاية رآها في حلم وهو نائم. وقد حصل على أدلة عن هذه المؤامرة بواسطة اللجوء إلى الحيلة والمخادعة، وفي ديسمبر سنة 1531 أذهل الجناة المذنبين وقطع رؤوس عشرين من بين هؤلاء المسيحيين الذين ظهروا له بأنهم الأكثر ذنبا، وأرسل الآخرين إلى السجن المخصص للأسرى(238).

ورغم ذلك كله يبقى هذا الوضع استثناءا.

كما إننا استطعنا ان نرى ظروف حياة العبيد التي سمحت بصعوبة لعمليات ربط الشراع بالصاري.

المرتدون:

مع أن الارتداد عن الدين لا يعطي الحق في الحرية للأسير، إلا أنه على الاقل يجعله متساو مع سيده بقدر ما هو مؤمن، وترتفع قيمته كعبد بواسطة هذا الإيمان ويصبح من الصعب جدا بل من المستحيل بيعه ثانية(239).

كما ان أحسن طريقة للتخلص من العبودية هو أن يصبح العبد تركيا(240)، وشاهدنا على مدى القرون ازدهارا حقيقيا في عملية التحول والارتداد والذي يمكن القول عنه على الأقل بانه لم يكن كله نزيها.

- بالنسبة إلى العبيد الفقراء الذين ليس لديهم أي حظ لدفع قيمة فديتهم في يوم ما. وهذه طريقة لادارة الظهر إلى العيش بدون أمل في الحصول على حظ يقدم لهم في مجتمع جديد وبدون تعصب، فالذي يحرس قطعان الماشية يمكن أن يصير ملكا لمدينة الجزائر (241). أنهم يرتدون ويجحدون متى شاؤوا فهم أقلية تتقدم نحو الرفعة والسمو والكبر(242).

- اما بالنسبة لمن نسميهم المنقذين فأمامهم أحد أمرين: أما دفع الفدية أو لبس العمامة (أي الدخول في الاسلام)(243).

- وهي أيضا وسيلة ابتزاز للسيد (مالك العبد) الذي يخسر القيمة التجارية للعبد في حالة ارتداده عن دينه ودخول الاسلام ويجد السيد نفسه مجبرا على تخفيض قيمة الفدية بحيث تكون عادلة.

- بالنسبة إلى البعض فهي طريقة للتملص من العمل في الأعمال الشاقة: فكثيرون هم الذين يضايقون أسيادهم بعملهم هذا، ورغم ذلك فإن هؤلاء الأسياد يعتمدون عليهم حتى لا يرفضوا العمل معهم في التجديف(244).

- اما بالنسبة للذين ظلوا في بلادهم الأصلية فإنهم يعانون من مشاكل عديدة معقدة مثل: ظروف الناس العاطفيين، ظروف التزواج والظروف القضائية، انها الفرصة للبدء في سفر جديد إلى مدينة في أوج تقدمها وازدهارها.

- لكن الأوضاع والحالات الأكثر تكرارا هي جريمة الزنا الفظيعة: فكل مسيحي ارتكب جريمة الزنا مع مسلمة استحق الموت إلا إذا تخلى عن الصليب (المسيحية)..(245). ومعظمهم أو كلهم لا يختارون الموت فيرتدون عن دينهم.. وباختصار فإنهم يدخلون الإسلام لأسباب سياسية أو خاصة وليس لأسباب دينية(246). ولهذا السبب كان العبيد يتدافعون بسرعة كي يصيروا أتراكا، انه إذا الطموح أو الالحاد والزندقة (247).

ان هؤلاء المرتدين الذين صاروا مسلمين بالمناسبة يعيشون بلا دين(248). ونعلم ان السادة لا يشجعون عبيدهم على هذه التحولات عن غير قناعة والتي تحرمهم من فوائد ذات قيمة معتبرة، وهناك كثير من الناس يعتقدون بأن العبيد المسيحيين يجبرون على الدخول في الإسلام

وترك دينهم، أو على الأقل يتم طلب ذلك منهم بإلحاح عن طريق التحبب والمداعبة، أو بالتهديد أو بالمعاملات السيئة.

ويقع على عاتق الرهبان تخليص هؤلاء العبيد ولكن الخطأ الذي ارتكبوه كان كبيرا جدا(249).

فالأسرى الوحيدون الذين تم اغراؤهم حقا هم أولئك الذين لديهم معارف خاصة، بامكانهم تقديم نادرة مثل: بناة السفن البحرية، معلمين نجارة، سباكين، قادة السفن، هؤلاء كلهم تحتاج اليهم البحرية، كذلك المهندسون والمهندسون المعماريون، وبشكل عام كل من يمكنه تقديم النفع والعون والفائدة في صيانة التحصينات والأسوار(250).

هذه الحالات توضع جانبا ولا يتم تشجيعها على الارتداد، وكثيرا ما يعارض الأسياد هذا التحول والارتداد بشكل قاطع وبكل صرامة.

إن ظروف العبد المرتد عن دينه تتغير من الأسوأ إلى الأحسن فإذا لم يكن متحررا فإنه يكون على الأقل معفى نهائيا من الأعمال المرهقة الشاقة كونه صار مسلما، ولا يمكن بيعه ثانية، ويبقى العبد ينتمي إلى سيده لأن التحول عن دينه لا يؤدي إلى التخلص والانعتاق لكن من الضروري أن يكون العبد محررا، التحرر لا يعطي الحق للعبد في الانفصال عن سيده الذي كان يعمل لفائدته والذي جعله حرا فالعبد القديم يصير مولى لسيده وعلاقة المولى بسيده تعادل تقريبا الرابطة الأسرية: فيرث السيد مولاه الذي يموت دون أن يكون له عائلة(251).

وكما رأينا فيما سبق بأن الذي يدخل الإسلام ليس له الحق في امتلاك زورق ولكنه يمكن أن يقود سفينة قرصنة. وأن أكبر الرياس في مدينة الجزائر هم من الجنود المرتدين عن دينهم لأنهم عادة ما يكون عندهم خبرة في أشياء البحر: لينتقموا من البلدان التي لم تعطهم حقوقهم، لذا فقد وضع المرتدون أنفسهم تحت تصرف البرابرة وفي خدمتهم نظرا لمعرفتهم الجيدة في السواحل الأوروبية وعلى الأخص المرافئ والمنارات، كما أصبح النورمانديون والبروفانسيون يشكلون آفات سيئة، وأصبحوا الأعداء اللدودين للمسيحيين(252).

وبما أنهم كانوا رياسا فإنهم يمتلكون ثروات هائلة وموقعهم الاجتماعي في المدينة أصبح معتبرا. وفي الغالب كانوا يلعبون دور الوسيط في عمليات تحرير العبيد وفي المحادثات والمباحثات مع البلدان المسيحية. كما يعهد اليهم حراسة العبيد، حيث يوجد لديهم الكثير منهم.

وبسبب هذه المميزات فإن الطبقة الشعبية الجديدة من الأتراك أصحاب المهنة(253) بدأت تتطور حتى أصبحت قوة مزاحمة ومنافسة لقوة الجيش الانكشاري من ذوي الأصول التركية. ان طائفة الرياس المشهورة تتكون كلها تقريبا من المرتدين الذين عارضوا بشدة ووقفوا في وجه جنود استانبول على امتداد القرن السادس عشر، ثم بدأ دورهم يتلاشى شيئا فشيئا وبدأ الشك يدور حولهم إلى درجة انه لم يبقى منهم سوى بعض العناصر فقط(254).

الانكشاريون:

عندما أقبل السلطان سنة 1518 وضع مدينة الجزائر تحت حمايته أرسل خير الدين جيشا قوامه ألفا (2000) جندي اختارهم من خيرة الجيش التركي وهم ما يسمون بالانكشاريين (ويطلق عليهم اسم ياني سيري بالتركية)، ثم أرسل 4000 متطوع تركي جاؤوا لدعم القوات العسكرية الأولى.

وبمجرد وصولهم إلى مدينة الجزائر شكلوا طبقة شعبية منفصلة تميزت بعجرفتها واحتقارها للسكان الاخرين. انهم يستفيدون من إعفائهم من الضرائب (وكذلك من رسوم الايلولة أو التركة). ويتهربون من السلطات القضائية العادية لإنقاذ ضباطهم الذين يستطيعون الحكم عليهم وسجنهم وضربهم بالعصا أو الموت(255).

هؤلاء الانكشاريون يعيشون عازبين بالقرب من القدر، فشعار الجيش، استعراضه العظيم ورايته هي قدر من البرونز (كزان) يجتمع حوله الرجال مرة في اليوم لوجبة واحدة، تماما كما كان يفعل البدو الرحل الأتراك في أسيا الوسطى في سالف العصور. وقلب هذا القدر رأسا على عقب يعني التمرد والعصيان، وأثناء ذلك فهم يلجأون بالقرب من الثكنة حتى يسلموا من العقاب(256). وتحمل أجسامهم من جهة أخرى اسم موقد

أوجاك (أوساك) وهو اسم المكان الذي يعلقون فيه القدر. وانتهى هذا التمرد والعصيان بانشاء الدولة، وباختصار فإن كلمة أوجاك تعني الوصاية على مدينة الجزائر.

ويحصل الانكشاريون البسطاء على رتبهم العسكرية بالأقدمية حتى القائد العام للميلشيا (أغا) يصبح في ظرف شهرين (مانسول أغا) كلقب شرفي أو فخري.

ويكون راتبهم العسكري زهيدا جدا ثم يزداد في كل سنة خلال السنوات الخمس الأولى: ويمكن ان يزداد بعد القيام ببعض الأعمال المأثورة. ما عدا جنود المشاة الذين يتركز عملهم بالأساس على حفظ النظام وجمع الضرائب.

وتستغرق مدة خدمتهم ثلاث سنوات: سنة في مدينة الجزائر، وثانية داخل البلاد وثالثة عطلة دون عمل.

سكن مدينة الجزائر خلال فترة حكم البربر أي حتى نهاية القرن السادس عشر من أصل 6000 جندي حوالي نصفهم. وكانت مدينة الجزائر في سنة (1533) تحتوي على 1800 تركي اضافة إلى أولئك الموجودين خارج المدينة وعددهم حوالي 2600 في مدينة تنس وقسنطينة(257). ولذا فهم يشكلون نسبة ضعيفة من سكان البلاد ولكنهم غير محبوبين ومقبولين من قبل باقي سكان مدينة الجزائر: فالميليشيا اعتبرت نفسها وكأنها في بلاد محتلة ومقهورة ولم تتوقف عن جبي الضرائب من السكان الفلاحين أو المدنيين، كما أصبحت الضرائب العينية بعد مدة قصيرة قوانين شرعية مستحقة الأداء، كما فرضوا على السكان مظاهر احترام خارجية، وكل عضو من هؤلاء الأعضاء أخذ لقبا مشهورا وعظيما هو لقب السيد... ومن السهل معرفة وادراك أي تشويش واضطراب يحمله هؤلاء القادمون الجدد من العادات السياسية والعسكرية البرباروسية ومن قادتهم القدامى. وكان يوجد بين كل هؤلاء الرياس القدامى نوع من التفاهم والتضامن الاخوي والودي الذي أمكنه ملائمة استبدادية وسلطة الواحد منهم ولكن بدون

غطرسة ولا كبرياء ولا حتى سفاهة ووقاحة هؤلاء الذين تمت معاملتهم بكل سرور وطيبة خاطر(258).

ان الصورة التي انطبعت لدى الجمهور عن الانكشاريين ظلت على العموم بأن الجيش الانكشاري جيش غير منظم، صنع وهزم الحكومات، يتمرد لأقل سبب، يكون دولة داخل دولة بحيث صار قليلا فقليلا لا يعتمد على السلطات في استانبول.

وإذا كانت هذه الحقيقة موجودة فإنه لم يكن قد حدث شيء بعد في سنة 1531.

وقد أبقى برباروس هذا الجيش على الحياد خلال فترة حكم البيلارباي كلها في ذلك العصر وكان ديوان الانكشاريين لا يقوم سوى ببعض الأعمال الشكلية وعلى الخصوص الانتخابات للمناصب المختلفة حيث تم قبول بعض المسؤولين الأساسيين في ديوان الباشا الذي يجتمع كل يومين أو ثلاثة أيام، حيث تستعاد هناك الحقوق ويتم التشاور والتداول في أمور الدولة. لكن سلطة الدولة لم تعمل سوى طلب الأراء وعلى ضوئها تقرر ضمن دائرة اختصاصها(259) وحتى سنة 1567 لم يسمح للانكشاريين الصعود على السفن لأن هذا المجال محجوز للرياس فقط.
ولا يوجد لدينا أي عقد أو وثيقة مكتوبة تبين لنا أن بارباروس كان يأخذ بأراء "اليولداش" لقيادة خط سير حياتهم بل على العكس كان هو الذي يحكم في كل شيء(260). وعندما حكم خير الدين ومرافقوه المدينة صار تأثيرهم تافها لا معنى له. ولكن مع مرور الزمن ومع وصول دفعات جديدة من الجنود بدأوا يتميزون عن الرياس، ويقللون من أهميتهم حتى أصبحوا أسياد مدينة الجزائر الحقيقيين.

اليهـــود:

تستعرض بسرعة التجمع اليهودي وأهميته في المدينة.
لقد سمح خير الدين لمؤسساتهم تحت الوصاية، بحيث تم تحديد نشاطاتهم التجارية (261). كما أنهم يستطيعون الوصول إلى مراكز عالية

بعد قبولهم في المدينة، كما انه تم احترام ثقافتهم، واجبروا على ارتداء لباس يختلف عن اللباس الذي يرتديه بقية الجزائريين، انهم يزدحمون في حارات خاصة بهم ذات كثافة سكانية عالية ويمتلك الكثير منهم بيوتا خارج هذه الحارات وكذلك منازل غنية في الريف.

كما لا يسمح لنسائهم بدخول الحمامات الشعبية(262)، وهم يأتون في الدرجة الثانية بعد العبيد المسيحيين من حيث تزويدهم بمياه الينابيع وزيادة على ذلك فإن هذا التجمع اليهودي يجب عليه دفع ضرائب للحكومة تقدر بـ1500 دوبلاس في السنة (تعادل 600 قطعة ذهبية) بحيث يدفع كل واحد منهم حسب امكانياته. وإذا اراد احدهم الدخول في الإسلام يجب عليه قبل ذلك اعتناق المسيحية: أي بعد أن يكون قد أكل لحم الخنزير ويقبل التخلي عن معقتده حتى يصبح مسلما لذلك فهو يحمل اسم "سلامي" إلا أنه يوجد قليل من هؤلاء المرتدين الذين يفعلون ذلك(263).

ومع ذلك فإن هذه الأقلية تتمتع بامتيازات اقتصادية كبيرة(264). ويمارس اليهود حرفهم وصناعتهم على نفقة المسيحيين تارة وتارة اخرى على نفقة المسلمين، ويعتبرون على الخصوص الوسطاء الوحيدين فيما يخص العلاقات الدبلوماسية او التجارية بين اوروبا والبربر(265)، كما يلعب اليهود دورا هاما في عملية بيع وشراء الغنائم(266). وهم أول من اخترع الكمبيالات واستخدموها في معاملاتهم مع مراسليهم من كل المدن الأوروبية، وهم يعتبرون أسياد العالم في جمع الثروات والأموال(267). حيث يعملون بصياغة الذهب والصيرفة ويقومون بطرق العملة الذهبية والفضية والنحاسية ولا ينازعهم أحد في ذلك.

كما يمتلكون عبيدا مسيحيين ويعاملونهم معاملة جيدة لانه إذا اشتكى أي عبد من سيده اليهودي فإن الباشا يستطيع أن يصادر هذا العبد من اليهودي والذي لا يمكن للباشا أن يفعل ذلك مع سيد مسلم(269). ويقوم الآباء المنقذون عادة باسكان الأسرى المحررين في منازل اليهود حتى يأتي موعد سفرهم النهائي(270). ورغم التعصب (بحيث لم يتم اضطهادهم وتعذيبهم بعد) فهم منتشرون في كل مكان في المدينة ويشكلون عنصرا هاما جدا.

النســـــاء:

كما هو معروف فإنه من الصعب تكوين فكرة عن المجتمع النسائي في البلاد الإسلامية، فالنصوص التي تخص العصر الذي يهمنا كانت نادرة جداء، فماذا نقول في تلك التي تتعلق بالنساء.

لم يذكر غزوات خير الدين شيئا أبدا عن هذا الموضوع، وإذا كان هاييدو قد تكلم باسهاب عن هذا الموضوع إلا أنه لا يعرف بوضوح عادات المسلمين الإصيلة ويبقى حكمه عليهم هو حكم أي أوروبي مندهش من الفرق الموجود بين الحياة اليومية للنساء الجزائريات والحياة اليومية لنساء بلاده.

لمعرفة المجتمع المغربي في العصر الذي يهمنا دراسته يجب أن ندرك باننا في بلاد البربر وليس في بلاد الشرق حيث تتمتع المرأة بحرية كبيرة جدا داخل أسرتها أو عشيرتها وهي غالبا ما تمارس صلاحيات كبيرة (271). وأضاف هاييدو قائلا أننا نلاحظ تأثير اللاجئين الأندلسيين على مدينة الجزائر: " فالعالم النسوي في اسبانيا الإسلامية قد نشأت في مجتمع سعيد، وهن يشكلن عناصر أخلاقيا وثقافية مختلفة ويتمتعن بحرية أكبر من تلك التي تتمتع بها النساء في شرق الامبراطورية(272).

كل هذا يفسر حرية الزواج والمصاهرة التي تظهر من خلال النصوص. ان معلومات أسرى القرن السادس عشر أثبتت عدم صحة الوثائق المعاصرة التي قمنا بالبحث من خلالها وبرهنت ان النساء كن يتمتعن بنوع من الاستقلال الذاتي: فمثلا كن يعالجن بأنفسهن حالات اطلاق سراح عبيدهن وشرائهم ثانية(273).

وكما لاحظنا سابقا فقد كن يقدمن حليهن وذهبهن للمشاركة في عمليات القرصنة وشيدن (275) "الهوابين" ويتصرفن بأموالهن بحرية تامة (276). ولا ينقصن أي ميزة أو خاصية: فالواحدة فيهن جميلة، شابة وعندها الكثير من المال الذي تأخذه معها(277).

وفيما يخص الزيارات العديدة المتبادلة بينهن فإنه لا يوجد زوج يمنع زوجته من هذه الزيارات ولا يستطيع أن يعارض رغم أنه لا يريد ذلك وإذا ما أراد الأزواج الضغط عليهن ومنعهن من تبادل الزيارات فإنهن يفسخن زواجهن فورا...(278).

اننا بعيدون عن الصورة الكلاسيكية للحريم المحروسات من قبل الاينوكس (ENNUQUES). والنساء اللواتي ليس عندهن عبيد وحتى اللواتي عندهن الكثير من العبيد فإنهن يخرجن وحدهن عندما يرغبن في ذلك: وهن بذلك يرتكبن الآثام والأخطاء عن غير قصد ودون الانتباه إلى ذلك(279).

ورغم اننا نراهن متحررات جدا إلا أنهن عندما يخرجن يلبسن الحجاب، كما يحتجبن عن عيون زوار أزواجهن، ولا يدخل إلى البيت لا الأتراك ولا المغاربة ولا حتى المرتدون إلا بعد أن يذكروا عبارة استعدوا. اجعلوا الطريق فارغة، وبسماع هذه العبارة تجري النساء فورا اللاختباء في بيوتهن(280). وهذا القانون لا يشمل المسيحيين احرارا كانوا ام عبيدا، حيث أن النساء المسلمات يطهرن أمامهم دون تحفظ(281) ويسمحن لهم برؤيتهن بحيث يحافظون عليهن أكثر مما لو كانوا منصفين وعادلين(282)، ونفهم من مؤلفات الأسرى بانهن كن يستسلمن بطيبة خاطر وسرور لفتنتهم وجمالهم: ومن المؤكد ان العزلة التي تفرضها عادات الشرق تجعل المرأة هناك شاردة الذهن دائما وفضولية جدا تريد معرفة كل ما هو مجهول بالنسبة لها، لذا نستيطع أن نجزم القول بأن العبد نادرا ما يتأخر عن الوقت المحدد وذلك بفضل سيدته والأب الوقور دان الذي سجل بنفسه هذا العمل فذكر بأنه يعتبر سببا رئيسيا يجعل العبيد ينكرون اعتقادهم بالمسيحية(283).
آخذين بعين الإعتبار من جهة وفرة الكتابات التي تأتي من بعيد.
اما بالنسبة إلى حياة النساء اليومية حسب وصف هاييدو فإنها تبقى قريبة جدا من تلك التي عرفناها في الزمن المعاصر والتي نعتقد بأنها هي نفسها التي كانت في بداية القرن السادس عشر.

وإذا لم يصادف ان كان عندهن عبيد لخدمتهن وهي حالة عدد قليل من النساء، فإنهن يتفرغن للعناية بأطفالهن ولترتيب وتنظيف منازلهن. وإذا وضعنا هذا العمل جانبا فإنهن يقمن بسبعة أعمال أخرى هي:

1- يتجملن، يلبسن ويذهبن إلى الحمام بعد الظهر مصحوبات بعبيدهن الذين يحملون لهن أقمشتهن وألبستهن الداخلية وعطورهن.

2- يقمن بزيارة أصدقائهن وصديقاتهن.

3- يذهبن لقضاء فترة بعد الظهر في بيوتهن الريفية، حيث الرجال المتزوجون قليلون ونوعا ما أحرارا يملكون على الأقل بستانا صغيرا (285).

4- يقمن بزيارة الأولياء المسلمين بصحبة أطفالهن الشباب.

5- يزرن المقابر وخاصة يوم الاثنين صباحا.

6- يجتمعن الواحدة عند الأخرى ليتسامرن ويبحثن عن حظوظهن لمعرفة مستقبلهن. وهو شغوفات جدا بالشعوذة والسحر ويقمن بإجراء عدة عمليات تكون نوعا ما سحرية بهدف الحصول على تكهنات وأخبار المستقبل. اللعبة القديمة "للبوقالا" كانت تحظى بشهرة كبيرة في ذلك العصر(286).

7- وأخيرا فإنه لا يفوتهن أي عرس أو حفلة زواج أو ختانة ولا يكتفين بقضاء كل النهار مشغولات بهذه الحفلة الراقصة بل يبقين طوال الليل أيضا بحيث يجب على الزوج البقاء في انتظار زوجته حتى تعود إلى المنزل(287). والنساء لا يلعبن أي دور في حياة المدينة. ولا يسمح لهن حتى بدخول المساجد(288).

الطلاق ظاهرة مألوفة جدا: والأسباب التي تؤدي إلى وقوعه بكثرة من جانب المرأة هي السلوك الغير لائق للرجل، ومن جانب الرجل هي المعاملات السيئة للمرأة تجاه زوجها، الضعف والعياء، عدم قيامها للصلاة والإدمان على الخمر(289).

ويتم عقاب المرأة الزانية (الخائنة لزوجها) إذا تم التأكد من مشاهدتها مع رجل مسلم مرة أو مرتين. وفي المرة الثالثة تعاقب المذنبة برميها في البحر بعد ربط حجر في عنقها. وإذا كانت تخون زوجها مع مسيحي في المرة الأولى تجلد المرأة أمام الناس وفي المرة الثانية يرمونها في البحر. أما بالنسبة إلى شريكها في الجريمة فله أن يختار ان يصبح مسلما أو يحرق حيا(290).

إننا نقف مندهشين أمام هذا الوهم الخارجي لعالم منغلق وله أسراره الذاتية. ولكن غياب الوثائق الأخرى تجعلنا نتصور حياة سعيدة، سهلة، بعيدة عن التعقيد، يتمتع أهلها بحرية كافية في كل الأحوال بعيدة جدا عن كل احتجاب كما هي عليه في بلاد الشرق.

ومع ذلك يجب أن نتذكر بأن القرن السادس عشر كان عصر اتصالات هامة، ومع وصول الأتراك حدثت تغيرات عميقة، وقد شعر بذلك شرطة تنظيم البغاء، فالذي كان يوجد حقا في بداية العصر ليس بالضرورة أن يبقى حتى نهايته على نفس حالته.

وجلب الجيش التركي والمرتدين عن الدين وذوي الأخلاق الفاسدة معهم عادات جديدة إلى مدينة الجزائر ووصفها المؤرخون بأنها غير لائقة: "الرياس والمشارقة يلبسون أولادهم لباسا فاخرا ثمينا (وكأنهم نساء ملتحية) هذا اللباس من أجمل الثياب الدمشقية (نسبة إلى دمشق). مثل الساتان والمخمل. حيث يرتدونه بدلال ونعومة زائدتين حتى لتخالهم من أجمل النساء(291).

وبالنسبة لهم فإن الأكثر شرفا فيهم هو الذي يستطيع جمع أكبر عدد ممكن من الجيتونات (GITONS) حتى أن نساءهم صرن يغرن منهم ويحسدنهم... وهم يمارسون اللواط في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع وهو عمل لا يفاجئ أحدا هنا(292).
الخطايا المنكرة الفظيعة التي لا تغفر والتي ذكرها الأب الفاضل الصالح دان مذكرا بانه لا يفصلنا زمن بعيد عن المحكمة الفرنسية التي تعج بصغار هنري الثالث.

وحتى نختم هذا الفصل عن النساء نضيف بأننا لم نتكلم عن البزة أو الثوب التي كانت ترتديه النساء وذلك لاننا لم نجد أي وثيقة سابقة عن وصول الموضة التركية ونعتقد بأنها تطورت حسب العادات والتقاليد التي كانت متبعة، ولا شيء يسمح لنا بالقول بأن النساء في سنة 1532 كن يرتدين نفس الأغطية واللباس الذي ارتدينه في نهاية القرن.

الديـن:

كان المذهب المالكي هو المذهب الوحيد في مدينة الجزائر قبل تأسيس باربـاروس عهد الوصاية. ونتيجة لسيادة الدولة العثمانية فقد عملت على نشر المذهب الحنفي(293)، ولكنهم لم يفرضوه على سكان المدينة.
الأوامر الوحيدة للوافدين الجدد (العثمانيين) كانت النظام والضريبة، بحيث كـان هـذان الأمـران مضمونين، وأثـر الأتـراك قليلا فـي البنيـة السياسية والمذاهب الموجودة سابقا، ولم يمارسوا في حياتهم أبدا عمليات التعذيب والاضطهاد المنظم(294).

وعلـى العكس فقد كـان هنـاك مـذهب التحـرريين (أنـصار الحريـة السياسية) الذي ساد في عهد ولاية خير الدين إذا كـان صحيحا ان مفتـي الحنفية ممثلا للأتراك كان لـه حضور أكثر من زميلـه المالكي(295). وإذا كـان اسم سلطان استانبول قد ذكر في الصلوات(296) فإن المالكيـة التـي ترتبط بها الصوفية والمرابطية بمسلكها الشعبي بقيت لمدة طويلة شكلا من أشكال الاسلام الأكثر انتشارا والأكثر تجذرا ورسوخا(287).

ان أسياد مدينـة الجزائـر الـذين لـم يكـن لـديهم أي انـشغالات دينيـة لـم يقومـوا بـأي جهد لتطوير الأعمـال الثقافيـة. انهم مـشغولون بمشاكل الـدين كعمل عكسي يمكنهم الحصول عليه من حكوماتهم التـي تسهر علـى أمنهم وجلب الهدوء للبلاد. وهكذا كان عندهم سياسة تآخي الديانات.
رغم أننـا نعرف تـأثير المـرابطين (الأوليـاء المسلمين) والأنظمـة الدينيـة المطبقة علـى عامـة الشعب إلا أن حكومـة الاودجـاك قد نجحت فـي اكتساب دعمهم ومساعدتهم أو علـى الأقل كانت تكسب حيادهم في بعض الحالات(298).

كما نتذكر الدور الذي لعبه خلف الولي المسلم سيدي عبد الرحمن في التوفيق بين عروج وسليم التومي(299)، وازدهرت الأماكن المقدسة في هذه المدينة جزائر القرن السادس عشر، ويمتلئ الشاطئ الشرقي بالأماكن المقدسة حيث كان مسلمو المدينة العليا وعلى الأخص منهم العبيد السود الذين يعودون إلى عصور محددة يأتون إلى هذه الأماكن ليقدموا الأضاحي وذلك بذبح الدجاج، او الجذع الأسود (صغير الثور) والكبش التقليدي المألوف(300). ونفس الشيء بالنسبة إلى عيون الماء السبعة الموجودة على شاطئ البحر والتي كان يرتادها العبيد السود يوم الأربعاء ويقومون بذبح الدجاج على شرف جون السودان طبقا للعادات القادمة من الجزء البعيد(301).

ان الورع والتفاني الشعبي الحيوي جدا لسيدي عبد القادر الجيلاني هذا الولي الذي ولد في بلاد الفرس سنة 1078 ومات عن عمر يناهز 91 عاما في بغداد حيث دفن في مصلاه (مسجده) في باب عزون. وعند خروج القراصنة من هذا الباب يقومون بتحيته باطلاق طلقة مدفع. ولجأ كويكونك إلى هذا الملجأ حيث كان في مأمن من ملاحقات الحكومة مهما كانت الجريمة التي ارتكبها.

ان سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي توفي في مدينة الجزائر عام 1468 دفن في قبره خارج الأسوار والتحصينات (302) وكان يعتبر حامي المدينة. وسيدي فرج، سيد آخر من القراصنة الذي كانوا يحيونه أيضا بطلقة مدفع ويطلقونها عندما يتجاوزن شبه الجزيرة باتجاه غرب مدينة الجزائر... سيدي بتكا الذي زعموا أنه ظهر ثانية في سنة 1541 عندما اعتبر هجوم شارل الخامس دليلا للنصر.. سيدي محمد الشريف المتوفي سنة 1542/، سيدي يعقوب، سيدي بوقدور ووالي دادا كلها أسماء لأولياء مسلمين مشهورين يشدون حماس الناس اليهم.

إلى جانب هذا الورع والتفاني فإن قليلا من ضعيفي الايمان قاموا ببناء مساجد كثيرة في نفس الوقت ولم نعثر لها على أي أثر في أيامنا هذه ولكن بواسطة النصوص المكتوبة والأوصاف، استطعنا أن نتعرف على الأقل اثنين: الأول شيده خير الدين سنة 1520 وتكلمنا عنه سابقا والذي يعرف باسم مسجد الشاووس حيث كان المكان المخصص لصلاة ضباط

الشرطة والجيش النظامي في القصر. والثاني يقع قريبا جدا من مدخل الجنينة الرئيسي وهو يشكل امتدادا لواجهة القصر القديم(303) ويعرف باسم جامع السفر والذي شيد سنة 1534 من طرف مسيحي دخل في الإسلام بعد ان كان عبدا عند خير الدين الذي أعطاه حريته وجعله قائدا وسمي سفر بن عبد الله(304).

كما ان الورع والتفاني لمساجد ومزارات الأولياء أدى إلى بناء العديد من الزوايا تحتوي على مساجد مثل زاوية سيد عبد الرحمن في أسفل شارع البحرية، وزاوية سيدي محمد الشريف... الخ(305). وجنبا إلى جنب مع الديانات غير المسلمة (اليهودية والمسيحية) فإن سياسة بربروس بقيت متساهلة وميالة للتسامح.

ورأينا بأن اليهود كان عندهم أماكن عبادتهم وأن الحكومة تركتهم يمارسون دينهم بكل هدوء، أما بالنسبة للمسيحيين فقد عاملتهم الحكومة بنفس ما عاملت به اليهود وتم بناء كنائس خاصة بهم داخل سجون الأشغال الشاقة. والتي يقام فيها القداس طيلة العام. وفي أيام الأعياد والاحتفالات لا تتسع هذه الكنائس الموجودة داخل سجن الأشغال الشاقة للناس حيث أن الكثيرين منهم لا يجدون مكانا للصلاة فيه لذا فهم يجبرون على عمل القداس في الساحة، وفي هذه المناسبة يستغل حراس السجن من الأتراك والموريون الفرصة ولا يتركون أي شخص يمر دون أن يدفع حق الدخول مما صار يعود عليهم بربح كبير(306).

وصرح سيرفونتيس قائلا: ان هناك شيئا يحيرني كثيرا وهو ان هؤلاء الكلاب الخونة تركونا نراقب ونمارس ديننا(307) كيف نفسر هذا التسامح في عصر قل فيه الحلم والتسامح والتساهل. وكل شيء يدعو إلى التساؤل في هذه الامبراطورية التي خلقها خير الدين بحيث يحتاج إلى كل طاقته لتأسيس مملكته. ويعتبر خير الدين رجل حرب ورجل دولة ولكنه ليس تقيا ومؤمنا. وان اعتقاداته لم تكن عميقة وراسخة ليفضل الجانب الروحي على السلطة.

ماذا يجلب له الدين. في مخططه وحسب قياساته فإن كل شيء يجب أن يساعد على ازدهار المدينة ويساعد كذلك على فرز ما سيصبح ثروة عظيمة لمدينة الجزائر.

اللغـــة:

إن سكان مدينة الجزائر من الأصول التركية والبربرية والأندلسية واليهودية والمسيحية قدموا من كل دول أوروبا.. حتى أصبحت مدينة الجزائر خليطا من هؤلاء البشر.

ولا يبدو بان هناك مشكلة في الاتصالات بين هذه التجمعات التي جاءت من كل النواحي.

ما هي اللغة التي يتكلمونها داخل المدينة؟

اللغة الأولى هي اللغة العربية بالتأكيد، ويتكلمون أيضا اللغة التركية وذلك منذ وصول الأتراك الأسياد الجدد للمدينة. ولكن منذ زمن طويل كان يوجد على السواحل الجزائرية منصات تجارية، ومنذ زمن بعيد أيضا يتوجب على هؤلاء اجراء محادثات مع الادارة التركية ومع السلطات المحلية وكذلك مع القراصنة. لذا تكونت لغة صبير (أي مزيج من اللغة العربية والإسبانية والفرنسية... الخ).

وهي اللغة التي تربط الأوروبيين بالموريين (المغاربة) الذين يعيشون في منطقة حوض البحر المتوسط الغربي وحتى على مستوى الشرق كذلك(309). هذه اللغة الهجينة تسمح لهؤلاء الناس من الأعراق والأصول المختلفة بالاتصال فيما بينهم. هذه اللغة التي يتم التحادث بها بين الأسرى المغاربة على طول السواحل البربرية وحتى استانبول والتي هي ليست بالعربية ولا بالإسبانية وليست لغة أي امة من الأمم ولكنها خليط من كل اللغات(310).

هذا اللسان الافرنجي أضاف هايدو يستعمله السكان للتكلم مع المسيحيين ويستخدمه المسيحيون كذلك: وهو عبارة عن تجميع

المصطلحات والكلمات تتكون في معظمها من اللغات الإيطالية والإسبانية والبرتغالية، بحيث لا يتم التقيد والاهتمام لا في الحالات ولا في الإشكال ولا في الأزمان، انها لغة مشابهة تماما لتلك التي يتعلمها السود الجدد القادمون من بلادهم(311).

والحق يقال بأن هذه اللغة تحتوي على القليل من الكلمات العربية وإذا اطلقنا عليها اسم "لغة افرنجية" فلأنها تتكون على الخصوص من كلمات ايطالية او اسبانية وبرفانسية. وتعلم العرب المغاربية القاطنين في المدن، هذه اللغة المبسطة او المختصرة نتيجة للمعاملات التجارية والمحادثات في المحصلة، فإنها لم تكن لغة فرنسية ولا لغة الموريسك (السكان المغاربة) ولكن الفرنسيين من جهتهم كانوا يعتقدون بانها لغة الموريسك والموريس بدورهم يعتقدون بانها لغة الفرنسيين(321).

وكان كل أناس البحر يعرفونها قليلا أو كثيرا لانها كانت مستعملة في جزء كبير من حوض البحر المتوسط، وهذا يفسر كيف ان الوافدين الجدد وعلى الأخص منهم الأسرى يندمجون بسرعة في عادات المدينة. وانتقلت هذه اللغة بدون شك من الموانئ إلى داخل البيوت الجزائرية بواسطة العبيد: واخبرنا سيرفونتيس وأراندا فيما بعد بأن أسيادهم كانوا يفهمونها ويتكلمونها (313). وكما أن هذه اللغة تخلو تمام من أسس القواعد وهي أكثر قربا إلى اللهجات الاقليمية المحلية منها إلى كونها لغة، وهي تشكل عامل الوحدة داخل تجمع سكاني متباين ومختلف(314).

الحياة اليوميـة:

الشارع، الحوانيت والمتاجر، لا يذهب أي شخص إلى المدينة وهو راكب حصانا(315)، إلا إذا كان صاحب مقام أو موظفا كبيرا، يتقدمه العبيد الذين يفتحون ويخلون له الطريق. في الواقع (لا أحد يدهش فالشوارع تتكون من الفراغات المتروكة بين المنازل المبنية إلى جانب بعضها البعض وهذه الشوارع ضيقة وملتوية. وورشة العمل هذه التي تتصورها هي مدينة الجزائر في سنة 1531 حيث ترتفع العمارات بشكل فوضوي دون وضع أي مخطط لها.

إن استقدام السكان يتم بشكل هائل وسريع حتى تأخذ المدينة وجها آخر.

ففي حارة التجار الواقعة على شارع الأسواق الكبير الذي يصل باب عزون بباب الواد، أضيفت حارات وأحياء أخرى تحتوي على حوانيت في جزئها المقابل للجامع الكبير والميناء: وهذا يعتبر منطقيا بالنسبة لمدينة تعيش على ما يأتيها من البحر.

هذا القسم من الأرض الواقعة بين باب الواد والساحل كان يعتبر كله الأكثر ملاءمة لمدينة سميت لتكون مدينة تجارية(317).
تتركز الحياة التجارية فقط في أسفل المدينة (أوتا: السهل).

أما سفح الجبل فقد بقي مخصصا للسكن، والشوارع تتألف من مداخل بسيطة على أبواب المنازل، حيث يوجد عدد كبير من الممرات بدون مخارج، ونلاحظ غياب الحيوية والنشاط في هذه الممرات، انها ليست شوارع يمكن للمرء أن يتسكع فيها(318).

أي تباين ومفارقة هذه مع غليان المدينة السفلى.

ويمتلئ شارع السوق الكبير والمخازن والمحلات التجارية من كل الأنواع... وهذا الشارع زاخر بالناس مملوء بالضجيج وفي بعض الأحيان يكون صاخبا ومهتاجا، شارع باب عزون هذا لا يعرف أيضا التخطيط المستقيم حيث يبلغ عرضه بين مترين ومترين ونصف (2-2.5)م(319)، انه يلائم ويحتمل عدة تعيينات تجارية والتي تعتبر الأكثر ضجيجا والأكثر نتانة حيث توجد في الأماكن الأكثر بعدا عن المدينة: على مقربة من الأبواب.

ويصل الشارع الرئيسي الاخر إلى باب البحرية. انه مغطى إلى نصفه من حيث العرض بواسطة خرج المنازل. وفي ذلك الشارع توجد اسواق الذهب، السباكين، الرصاصين، النقاشين على القرون وحتى الصباغين (منظفي الثياب)(320).

المحلات التجارية كلها متشابهة: مرتفعة بالنسبة إلى الشارع، وهي في بعض الأحيان تكون عبارة عن مشكاة (فتحة او كوة في حائط) بحيث يتسلق اليها صاحبها في الصباح بواسطة سلم بدائي يتكون من الحجارة او من ثقوب داخل الحائط. وفي بعض الأحيان يجب على التاجر أن يتسلق بواسطة حبل... ويبقى الزبائن في الشارع حيث يتم معاينة الأشياء والتي تعرض عليهم قبل شرائها. وتخفض المصاريع الخشبية في النهار أما في الليل فتستعمل لاغلاق الحانوت (321) كما أنه لا يوجد اضاءة أخرى سوى تلك التي تأتي من الشارع، لذلك فهم يغلقون محلاتهم عند مغيب الشمس.

ويمكن أن نجد في داخل هذه الحوانيت بالإضافة إلى ما يحصلون عليه من غنائم القراصنة والذي ينتجه الريف كل المواد الغذائية التي تحضرها السفن التجارية والتي تتعامل بكل حرية تجارية مع مدينة الجزائر.

قبل حوالي شهرين تقريبا رست سفينة فرنسية كبيرة في الميناء: لقد جلبت القماش والأغطية والخمر والملح والتوابل، وكانت مشغولة بتحميل الشمع ونسيج الكتان والصوف(322).

وتصدر مدينة الجزائر القمح والشعير والارز والأنعام والماشية والصوف والزيت والزبدة والعسل والزبيب والتين والتمر والحرير.

اما بالنسبة للجلد والشمع فهي تختلف عن سابقتها بحيث تحتاج إلى تصريح من الباشا من أجل بيعها للمسيحيين: "سمسرة الجلود والشمع تقتصر على الأتراك والموريين فقط فهم وحدهم يستطيعون شراءها من أهل البلد ويبيعونها ثانية إلى المسيحيين(323).

وكانت الشوارع ضيقة ومكتظة وخاصة الشوارع التجارية، فإن أراد أحد التحدث مع صديق له يلتقي معه صدفة فإنهما يذهبان للجلوس في مقهى مغربي. وهناك يجلسان على حصير من القصب يشربان القهوة، يدخنان الغليون، ويلعبان الضامة أو الشطرنج لكي يمضي الوقت دون فائدة أو منفعة(324).

انه لشيء عجيب، يوجد أيضا حانات وخمارات في مدينة الجزائر، ويمنع على المسلمين بيع الخمر أو ماء الحياة، لكن الجنود الأتراك يشربون كل شيء تقريبا وبكميات كبيرة(325).

ولم أر في حياتي أبدا أكثر ادمانا على الخمر منهم حتى من الألمان (326)، ومن جهة أخرى فإن القراصنة يجلبون غالبا في غنائمهم، سفن محملة بالخمور (327). كما منحوا للعبيد المسيحيين امتيازا لادارة خمارات داخل سجن الأشغال الشاقة. بحيث يدفعون عنها ضرائب مرتفعة لأسيادهم والذين لهم الحق في ادارة هذه الخمارات، فإنهم يعيشون كالأمراء بين العبيد وخلال مدة قصيرة يحصلون على حريتهم(328).

وتبقى هذه الخمارات مفتوحة طوال الليل وأصبحت مكانا عاما يلتقي فيه خليط من القراصنة والجنود الانكشاريين والعبيد. بالنسبة للذين تعودوا على الخمارات، أصبحت حياتهم موزونة بواسطة شروق وغروب الشمس. وفي القرن الثامن عشر، ذكر لنا فونتوري دي بارادي: في مدينة الجزائر يتناولون افطارهم على الساعة السادسة صباحا ويتغدون على الساعة التاسعة، ويتعشون على الساعة السادسة مساء، وينام الناس على الساعة التاسعة مساء، ويستيقظون قبل أو في وقت شروق الشمس(329). وتكون أبواب المدينة في الليل كلها مغلقة.

يوم العطلة العادي هو يوم الجمعة. ومع ذلك فهم لا يتوقفون عن العمل أبدا خلال هذا اليوم. وكذلك يفعلون في كل أيام الأعياد ما عدا الأيام الثلاثة الأولى من العيد الصغير (عيد الفطر) بحيث تدوم الاحتفالات مدة ثمانية أيام وكذلك في العيد الكبير (عيد الأضحى) وحتى في هذا العيد فإن الكثيرين منهم لا يعطلون سوى في اليوم الأول فقط(330).

الضواحـــي:

بالقرب من باب عزون تمتد ضاحية مأهولة بالسكان وصل عدد منازلها إلى 1500 منزل سنة 1573 عندما قام باشا عرب أحمد بتمشيطها لحفظ الأمن فيها.

انه الموقع الذي يخيم فيه الناس القادمون من الريف عندما يأتون لبيع منتوجاتهم في مدينة الجزائر، يزدحم الناس الفقراء والأطفال البؤساء والحمير والبغال والجمال كلهم يزدحمون في تجمهر قذر تحت أسوار المدينة الثرية الموسرة، ومن هناك يدخل ويخرج كل من يريد ان يعود إلى الحقول داخل الدوار وفي كل الأماكن البربرية. ومن هناك أيضا تدخل كل المؤن. وكذلك فإن الموريين والعرب يأتون إلى المدينة من كل الجهات(331). ومن هذه الجهة أيضا يقومون بالتنفيذ بحيث يعرضون المحكوم عليهم بالإعدام فوق الحلبة المقامة داخل التحصينات.

ومن هناك اكتشفوا على الشاطئ باتجاه رأس تافورة مزارات سيدي يتكا وسيد عبد القادر الجيلاني المخفية تحت الأعشاب في "الجناح الأخضر" لمدينة الجزائر(332) لأن الريف من تلك الناحية أكثر جمالا وطرافة من جهة بوزريعة باتجاه المنحدرات الكثيبة(333). مع أن الضاحية الأخرى التي تقع تحت باب الواد غامضة؟. حيث يمر منها الناس المتدينون للوصول إلى مسجد سيدي عبد الرحمن. انها جانب من المقبرة التي طالما عرفت تواجدا متكررا للنساء اللواتي يأتين اليها للتنزه أو لمقابلة بعضهن بعضا. وتوجد المقبرة اليهودية على يسارها على مخرج الباب ولا يوجد هناك مقبرة مسيحية. انه يجب انتظار عهد سيادة حسن باشا حتى يسمح للمسيحيين بشرط ان لا يقيموا حولها السياج ولا يحيطونها بأسوار ولا بخنادق، كما يفعل المور المغاربة والأتراك وحتى اليهود(334).

منذ زمن بعيد ارتفعت من هذه الناحية افران الجير "الحجر الأزرق" الذي يعرفه جيدا قلاعوا الحجارة والبناؤون، وبسبب وجوده بكثرة فقد أطلق في بعض الأحيان على مدينة الجزائر اسم "بلد الجير"(335). وبملاحظة نقوش القرن التاسع عشر حيث شاهدناها مهدمة ومخربة، يمكننا أن نتصورها في عصر ازدهارها وإشراقها بأنها صور ظلية مخروطية الشكل محاطة بسلالم دائرية مقصوصة برقة تنعكس صورتها على زرقة البحر لنظافتها(336).

ويمتد أمام باب الواد أيضا ساحة حيث تجري فيها الأفراح والتسليات في أيام الأعياد (وخاصة العيد الصغير). وفي ذلك الوقت كانوا

يمارسون ألعابا من كل الأنواع مثل ألعاب الانكشاريين، المراجيح، لعبة صاري الحلوى (صاري يعلق في أعلاه حلوى ولا يمكن الحصول عليها إلا بتسلق الصاري). وعندما تم ختان ابن حسن أغا سنة 1541، أقام حفلات لهو وتسلية رائعة: وخلال ذلك شيد صاري حلوى في باب الواد مدهونا بشكل جيد بالشحم. وفي رأس الصاري علقت قطعة قماش ثمينة وصرة مملوءة بالذهب يكون من نصيب من يستطيع الوصول إليه(337).

الفحص (ريف المدينة):

وهذه أيضا جهة الوادي الصغير المعمورة بالبيوت الصيفية الجميلة والفيلات البهية الممتعة بساحاتها المبلطة بالمرمر وصالاتها الملبسة بالصيني المزخرف(338). بحيث بدأ البرجوازيون في امتلاكها شيئا فيشئا. وبحلول فصل الصيف الجميل تزداد رغبة سكان هذه المدينة في قضاء عطلتهم بمنازلهم الصيفية هذه. فهم يغادرون المدينة مصحوبين بعائلاتهم وفي اثناء الطريق إلى هذه البيوت يأخذون قسطا من الراحة تحت، اشجار الزيتون القديمة على جانبي الطريق ويتمتعون بظلالها الوارفة(339).

في هذه المساكن الريفية التي تنتشر حول مدينة الجزائر ينسون مشاكل المدينة وهم جالسون في وسط الأشجار والأزهار.

وتتمتع النساء بحرية اكثر في هذه المنازل الريفية بعد الانزواء والعزلة التي تفرضها عليهم حياة المدينة(340)، وهناك يرحبون ويحتفون بالقراصنة عند عودتهم من حملاتهم القرصانية في البحر.

ان ريف مدينة الجزائر يعتبر امتدادا ضروريا لمدينة بلا حدائق ومساكنها متراصة بعضها إلى بعض داخل أسوارها.

إذ في هذا العصر، عصر النهضة، ظهرت اوروبا في ميدان الفن والثقافة، وكذلك فإننا على ابواب ولادة نهضة جديدة ستقام على هذه الضفة من البحر المتوسط ولادة عالم جرئ مغامر كثير التجوال إلا أنه عالم منظم له قوانينه الثابتة مدينة صغيرة مظلمة اصبحت عاصمة لمملكة باكمالها بدون ضعف(341) فمن الرياس الأكثر غنى إلى العبيد البائسين كل واحد

فيهم ينافس الاخر لإعطاء الجزائر وجهها الجديد كما ان الفروق بين الأسياد والعبيد قد اختفت مؤقتا من اجل تحقيق الهدف الوحيد وهو تأمين بناء الدولة.

وبإرادة خير الدين وعزيمته خطت الامبراطورية التركية خطوات واسعة نحو الغرب واتسعت ارجاؤها بحيث صارت مدينة الجزائر تشكل قلقا كبيرا للاسبان هذا العملاق الآخر في ذلك العصر حيث بدأ الإسبان بالبحث عن طريقة لتهديمه وإنهاكه.

وقد وصفه الامبراطور شارل الخامس بأنه يشكل خطورة كبيرة على اسبانيا حيث جهز حملة ضده سنة 1541 من اكبر الحملات البحرية. لقد استطاع بانتصاره هذا ان يأخذ مجده وازدهاره محققا بذلك كل آماله وحتى نهاية ذلك العصر كان يعتبر قوة عظيمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

الفصل الرابع
الجزائر تحت خلافة حسن آغا

شغلت الجزائر التي ازدهرت ازدهارا باهرا فكر معظم العالم المسيحي فمن بين الأشغال التي تمت في المدينة بناء رصيف جعل الميناء اكثر نشاطا و عملا وقد قاربت الأشغال في هذا الرصيف على الانتهاء وفي نفس الوقت قام خير الدين ببناء رصيف اخر في شرشال لأن هذه المدينة تحتوي على ميناء طبيعي حيث اراد خير الدين ان يجعله واسعا و عاليا جدا(342) لهذا السبب إذا سيكون الهجوم المقبل ضد سيادة هذه المدينة.

في جويلية سنة 1531 جهز القائد الجنوي المشهور "اندريادوريا" حملة قوامها 20 سفينة شراعية حربية وتحمل على متنها 1500 جندي وقام بمهاجمة المدينة الصغيرة على حين غره ولكن بعد وقت قصير من دخلوها تفرقت الحملة العسكرية من اجل التفرغ للنهب والسلب مما سمح لسكان مدينة شرشال تمالك انفسهم وانقضوا على الجنود المسيحيين المتفرقين والمحملين بالغنائم فجرحوا وقتلوا الكثير منهم وفي النهاية اوقعوا فيهم الهزيمة(343). وبعد التفكير، تم رصد هذه العملية لتبادل الأسرى فالذين تم اطلاق سراحهم من جيش دوريا حلوا مكان الذين هربوا واختفوا.
وهذه هي ايضا هزيمة أخرى(344) للمسيحيين ونصر للجزائريين.

سفر خير الدين:

علمنا ان السلطان العثماني سليمان اراد ان يتقابل شخصيا مع البطل الذي وقف في وجه عدوه الإسباني.

وفي سنة 1533 دعاه الى استانبول وكان جلالة شارل الخامس قد عرف بالتأكيد بمغادرة برباروس الجزائر ولكنه كان يجهل دون شك بانه متجه إلى تركيا بأمر واضح من السلطان(345).

ولا نفهم جيدا لمذا جهز هاييدو (ومن بعده غرامونت) الحملة على تونس الذي سيتبعها قبل الاعتراف الرسمي بالسلطان وقد كتب في الواقع "بانه عاد إلى استانبول ليطلب من السلطان مساعدته لكن الأمر ال[illegible]

والمرتدين عن الدين قالوا بانه يكتب للسيد العظيم عما حدث ويرجوه ان يبعث له رجالا يحمون مدينة الجزائر اثناء وجوده في تونس(346) والحالة هذه فإن الوثائق الإسبانية في ذلك العصر والغزوات قد اثبتت العكس حيث ذكرت بانه سافر في ذلك الوقت إلى تركيا وهناك تم الضغط عليه من قبل سليمان الذي جهز حملة ضد تونس، وهذا اكثر بكثير من نظام الأشياء: فعدا عن كون خير الدين باشا الجزائر، إلا أنه لم يكن لديه أي عمل بعد في اجهزة الدولة العثمانية العظيمة فهو ليس إلا موظفا رسميا يحمل لقب بايلر باي الجزائر والذي يستطيع ان يقود عملية مهمة جدا، وهي تسليم تونس للاتراك.

في سنة 1533 غادر خير الدين الجزائر تاركا المدينة تحت حماية رجاله الموثوق بهم إلا ان احد المرتدين المعروف باسم حسن أغا والذي سنتعرف على شخصيته البارزة فيما بعد حيث شارك في القيادة العامة لميلشيا الحاج باشا والقائد علي ساردو حيث سيرأس حسن أغا من الآن فصاعدا مدينة الجزائر

وفي 16 افريل سنة 1534 أحدث ضجة كبيرة في استانبول(347) بحراسة كل القراصنة الموالين له ومتبوعا بالسفن التي استولى عليها في الطريق. لقد غادر الجزائر بعشرة سفن شراعية حربية وعشرة فيوستات (FUSTES) ووصل إلى استانبول ومعه 26 سفينة(348).

وطلب الوزير الكبير ابراهيم الذي اتخذ من حلب مقرا له من السلطان أن يبعث له خير الدين حتى يمنحه منصب بايلر باي وأن يزوده بالتعليمات والتوجيهات اللازمة للنجاح في الحملة القادمة ورجع القرصان الذي لا يكل ولا يتعب راكبا حصانه ومتبوعا بقادته إلى حارة ابراهيم الذي استقبله باحتفال بهيج وقلده لقب بايلر باي الجزائر وبهذا اللقب يحق له أن يتصدر المجلس الذي يضم كل البيلربايات الآخرين(349). ووصل إلى هذه المدينة كتاب من السلطان يقضي باعطاء قفطان وثلاثة ديول لخير الدين ويأمر رئيس الوزراء بتعيين الباي في منصب الباشا.

ولهذا فقد استدعى رئيس الوزراء الديوان العام ليخبره بأن خير الدين ارتدى رداء الشرف ووضع على رأسه عمامة بمناسبة تعيينه في منصب الباشا(350)، وأصبحت مدينة الجزائر احدى عمالات (ولايات) الامبراطورية العثمانية. وقائدها الملقب بأمير الأسطول البحري الكبير، يستطيع أن يقول رأيه عن العمليات التي حاول القيام بها في المغرب، فقد شرح إذا خطته إلى السيد العظيم والتي تعتمد على تطبيق الخناق على الإسبان في عقر دارهم بعد طردهم من افريقيا، ولكن كان من الضروري قبل كل شيء طرد ورثة السلطة الحفصية الضعيفة لأننا نعرف أنهم على استعداد للتعامل مع المسيحيين في تركيا من أجل الحصول على حكم ضد ملك تونس مولاي حسن، وتقرر استخدام هذا الملك كمبرر للقيام بالغزوة وبالتالي فقد أطلقت الإشاعات في هذه الدول، ولكن في اللحظة التي صعد فيها على الأسطول الذي ظن بأنه سينقله ألقى القبض عليه ووضع في السجن حتى مات(352).

ووصل بارباروس الى تونس وأقنع التونسيين بأنه جاء ليخلصهم من ملك أتعبهم كثيرا من أجل أن يأتي برجل شرعي يحل مكانه. واستولى بكل سهولة على المدينة وكان سيد الموقف حيث صرخ قائلا:"أنه لايوجد ملك آخر على تونس غير سليمان(353). وقاوم التونوسيون المخدوعون باسترخاء ومارسوا التهديد والمراوغات في نفس الوقت حيث استطاع خير الدين أن يستغل هذه الوضعية.

لكن بالنسبة إلى شارل الخامس كان التهديد غير محتمل مع مغرب تحت سلطة الأتراك، هذا المظهر الجديد هو شبح اعادة فتح اسبانيا الذي أضاف خيميناس (XIMINIE)، وإذا لم يتدخل شارل الخامس بسرعة فإن دولة اسلامية كبيرة ستتكون في شمال افريقيا، وبدعم من الأتراك ستشكل تهديدا عظيما لاسبانيا(354). كما أن الامبراطور نفسه كان على رأس الحملة: وقد تواجد أمام تونس 412 سفينة كبيرة و27.000 رجل، انه بالنسبة له عدد ضخم في منطقة سكانية منقسمة بسبب الحروب الداخلية وسقطت المدينة في يد الإسبان في شهر جويلية سنة 1535.

وحسب تكوين المقاتلين فإن خير الدين قد أرسل لنجدة مدينة الجزائر، وكان قد أمن خطوطه الخلفية"وذلك بأن، ترك 15 سفينة حربية راسية في ميناء عنابة بينما استقر الضابط حسن آغا في قسنطينة.

وبفضل هذه الاحتياطات الحكيمة بعد الهزيمة استطاع ضم الجزائر بسرعة حيث بدا من الطبيعي أن يبقى هناك مدة من الوقت ليعوض عن نكبته (355). وكان هدفه الأول هو اعادة تكوين الأسطول.

ان مستودع الأسلحة كما تريناا اياه الحفر القديمة لايوجد بعد لأنه تم بنائه في سنة 1573 من قبل عرب باشا، ولكن يوجد على الميناء ورشة هامة لاصلاح السفن.

ومن خلال هذه الورشة استطاع الجواسيس الإسبان معرفة عدد المدافع في المدينة حيث استطاعوا أن يحصوا 1533 كما استطاعوا حتى معرفة اسم مستودع الأسلحة الذي يقع (بين المسجد ومصنع الأسلحة يوجد 21 قطعة مدفعية منها 6 مدافع صغيرة مصنوعة من الحديد(356). وفي نهاية سنة 1535 تم اعادة بناء الأسطول واستطاع خير الدين أن يعود إلى البحر على رأس 32 سفينة(357) متفوعا بقوته الجديدة(أليس هو كابيودان باشا؟) انه من الآن فصاعدا سيسود على البحر المتوسط. انهم لم يستطيعوا أن يؤذوه عندما كان وحيدا والآن وهو يقود أسطول السلطان كما أنه سيضمنون من قبله(358).

وعاد مرة أخرى إلى مدينة الجزائر بعد غارة على ماهون(MAHONE) ثم تفرغ نهائيا لمواصلة حرفته المدهشة لمجد وعزة الامبراطورية العثمانية في البحر المتوسط.

حسن آغا:

ان الخليفة الذي جاء بعد خير الدين (359) هو رجل من اختياره لأنه هو نفسه بقي في منصب بيلر باي الجزائر(360).

ولد حسن آغا في سردينيا وقبض عليه بارباروس عندما كان طفلا في حملات القرصنة على هذه الجزيرة، وقد أصبح حسن بسرعة الشخص المفضل عنده ثم جعله حراء، وقد حفظ حسن آغا كل الأفضال والجميل لسيده، حيث أوكل اليه عدة مناصب قيادية عسكرية نظرا لشجاعته رغم أنه خصي...(361) وهو الذي ولاه على قسنطينة للحفاظ على سلطته ونفوذه وذلك أثناء حملته على تونس(362) وقد رجع إلى مدينة الجزائر في نهاية 1535 لاستعادة حكومة المدينة وذلك بعد سفر رئيسه»(363).

وكان متعقلا في حكمه التام، وكان كريما متسامحا متفرغا بالكامل لمصلحة المملكة ومن أجل رفاهية ورخاء الناس.

فنشر العدل والانصاف، كما أحب الدراسة والعلم، حتى الدين وأخيرا فإن قوته وشجاعته جعلته بشكل عام محبوبا ومحترما(364).

وقد حكم مدينة الجزائر لمدة ست سنوات دون تسجيل أي حادثة وأعاد لها العدل... ولم تكن تتمتع بالعدل هذا في زمن أي باشا قبله»(365)، كما أننا لم نسجل أي نقد أو انحراف في عصره ومن هنا إذا جاء اتهامه من قبل مؤرخي القرن التاسع عشر، أمثال بيربروغر(366) ومن بعده غراموننت وميرسيي(368). وحسب هؤلاء فإن هذا الرجل الشجاع والنزيه قد تواطأ سرا مع الإسبان لتسليمهم مدينة الجزائر.

وبعد محادثات أجراها مع الكونت دالكوديت حاكم مدينة وهران وعده حسن آغا بتسليم المدينة وفي حالة اخلاله بهذا التعهد فإن الامبراطور سيهاجمه بقوات معتبرة لا يستطيع مقاومتها(369) وهؤلاء المؤلفون لم يذكروا مصدر معلوماتهم، ومن الصعب علينا تقييدها بالكامل. صحيح أننا وجدنا في رسائل الإسبان (في سنة 1542 بعد هجوم شارل الخامس) (370) حملة مبهمة يمكنها أن تترك مجالا أكثر للمداولة والمفاوضة. الموريون (المغاربة) هم الذين حاولوا اغراء دون ألونسو أكثر من حوالي سنة في موضوع المحادثات من قبل حسن آغا. وهذه الرسالة كانت موقعة بيد الامبراطور: وقد أدرك دون ألونسو مايريده الموريون وما يشتهون

اليه ولا شيء هناك يسمح للقول بأن الرسالة تتعلق بتسليم المدينة. وعرفنا فيما بعد بأنها مشكلة صغيرة: تتعلق باتفاقيات تجارية ومبادلة أسرى.

ومهما يكن فإن المواطنين والمعاصرين لحسن أغا لم يذيعوا مثل هذه الشكوك. بل على العكس: فمن هاييدو الإسباني إلى المنافقين لخير الدين في الغزوات، كل منهم يمدح ويمجد ويعظم خصال الخليفة. وعلى أية حال فإن سلوكه ليس سلوك رجل مستعد لتسليم مدينته..

ولم تكن الوضعية التي تركه عليها خير الدين عند مغادرته مريحة: وشيئا فشيئا ظهرت اشاعة تقول: أن شارل الخامس لم يكتف بتونس وأن حملته المقبلة ستكون ضد مدينة الجزائر، حيث هبت رياح الرعب والهلع: وبدأ السكان يشعرون بالقلق الشديد وهرب من المدينة كل من استطاع الهرب من الأتراك. وعمل حسن أغا كل ما في وسعه لايقاف عمليد الفرار هذه ولكنه لم يوفق في ذلك (371)، كما أنه استعد استعدادا تاما للهجوم المنتظر، وتم ربط قلعة البنيون القديمة المحصنة بالأرض، فثبتوا المدافع على الأسوار البسيطة المثقوبة بفتحات ضيقة وتخبئ وراءها مدافع من ذات العيار الضعيف(372).

كما أعادوا بناء الأسوار القديمة التي انهارت من ثلاث مواقع مختلفة على مساحة واسعة ومعتبرة بعد الأمطار الغزيرة في فصل الشتاء، وقد أصلحها السكان بسرعة كبيرة إلا أن العمل لم يتقدم كثيرا بسبب نقص العمال الجيدين، والموضوع هو تجنيد 1500 عربي من الريف لانهاء هذا العمل(373).

ودائما بفضل الجواسيس الإسبان الدين كما يبدو بأنهم لم يتوقفوا لحظة واحدة عن مراقبة مدينة الجزائر، استطعنا أن نكون وصفا دقيقا عن تسليح هذه المدينة:

- داخل القصر الموجود في الأعلى(374) يوجد: 3 مدافع حجرية (منجنيقات) و5 أنصاف مدافع أو بما يسمى صقور.

- يوجد مدفعان وصقران (نصفا مدفع) فوق القلعة الكبيرة بالقرب من مدخل باب الواد(537).
- في زاوية مدخل بابا الواد من جهة البحر يوجد 4 مدافع.
- من اخر نقطة حتى المدخل في مواجهة الجزيرة يوجد: 17 قطعة مدفعية.
- بين باب الجزيرة والجامع الكبير يوجد: 10 قطع من البرونز و4 قطع مدفعية من الحديد وواحدة من هذه الأخيرة المسماة حفنية (مدفع قديم).
- بين الجامع ومستودع الأسلحة يوجد 21 قطعة منها 6 مدافع صغيرة من الحديد.
- بين مستودع الأسلحة ومدخل باب عزون يوجد 8 قطع وعلى هذا المدخل نفسه يوجد مدفعان ناريان صغيران(376).

ومن أجل أن يبرهن على ثقته وإعادة الهدوء والأمن إلى الأذهان اغتنم حسن أغا مناسبة ختانة ابنه ليقيم الأعياد والأفراح حتى أصبحت مثلا لأحسن الأفراح والأعياد في العالم(377).

وبعد ذلك نظم كل الرجال الأصحاء وقام بتوزيعهم على مراكزهم في كل حارة من حارات المدينة وذلك بمساعدة شيخ المدينة، كما قطع كل الأشجار المحيطة بالمدينة مبتدءا بأشجار حديقته الخاصة(378).

وبالتوازي مع هذا العمل بعث نجدة إلى ملك تلمسان المضغوط عليه من قبل الإسبان للتعامل معهم. حيث كتب حاكم وهران الكونت الكوندت رسالة إلى شارل الخامس يعلمه فيها بأن ملك تملسان قد بعث رسالة إلى مدينة الجزائر للتشاور مع حسن أغا، وطلب منه بأن يبعث له ألف جندي تركي وثلاثين أو أربعين مدفعية(379).

وفي الواقع فقد أحسن خير الدين اختيار خليفته.

ولكن ماهو عدد الجيوش التي جهزها؟ الشهادات والأنباء متذبذبة (380) حيث تذكر بين 3000 و6000 رجل، وهذا العدد يتضمن كل من هو قادر على حمل سلاح ولكنهم ليسوا محاربين أقوياء أشداء. وهذا جزء قليل من الأشياء التي حضرها حسن أغا لمجابهة الحملة.

ولم تكن الاشاعات كاذبة: فقد قرر شارل الخامس التفرغ لمدينة الجزائر بعد ان نجح في حملته على تونس، وكان تدمير مدينة الجزائر هو الهدف الأول الذي وضعه الابن الأصغر لفرديناا الكاثوليكي، ابن فيليب الجميل وجون الماجن (LE FOLLE) (381).

وفي سنة 1541 جمع أكبر كمية من السلاح في القرن السادس عشر في مايوركا (382) وبعث كل أشراف ونبلاء اسبانيا وألمانيا وايطاليا متطوعين لهذه الحملة(383).

كما إن مجموعة الفرسان كانت ملازمة للحملة العسكرية، وشارك في مساعدتهم على تحضير هذه الحملة القائد المدهش في ذلك العصر "أندريا دوريا قائد الحملة، كما ساعدهم في ذلك هرناندو كورتز فاتح المكسيك، مصحوبا بولديه الإثنين... اضافة إلى مدينة الجزائر فهناك قوة العثمانيين التي يجب محاربتها في آخر منطقة نفوذ غربية.

ورغم أن هذه التحضيرات قد تأخرت والفصل متقدم جدا للمباشرة بالحملة البحرية. فإن مستشاري شارل الخامس كان رأيهم تأجيل الحملة هذه.

ولا يعرف أبدا لماذا استمر الامبراطور في محاولة الاغراء، رغم كل الآراء غير الملائمة لإعطاء التفسير في الرأي والاعتذار عن الخيبة التي مني بها والتي عوقب عليها والتي تكلم عنها مؤلفوا القرن التاسع عشر حيث قالوا: بأنه اتفاق حدث مع الأعداء.

وتحت سماء مملوءة بالتهديدات التي تحمل عدة هزات منذ مغادرته في أكتوبر 1541، انطلق الأسطول المسيحي ووصل إلى مشارف سواحل مدينة الجزائر في نهاية الشهر.

الفصل الخامس

هجوم شارل الخامس
على مدينة الجزائر
(اكتوبر 1541)

هذه الحملة التي كانت نتيجتها فاصلة بالنسبة لمستقبل مدينة الجزائر، كانت قد رويت عدة مرات.

المصدر العربي الوحيد والرئيسي هو مخطوطة محكمة (MAHEKME) والتي غالبا ما تهمل قصص الأوروبيين المشاركين في المعركة أمثال: (فيليجيون، مارمول، ساندوفال..) حيث نستطيع ان نكتب الأحداث ثانية دون الخوف من الوقوع في الخطأ الكثير.

الأربعاء 19 أكتوبر 1541 اعلم الجنود الذين يراقبون مرتفعات بوزريعة حسن أغا بأن السفن الحربية تتواجد في البحر بأعداد كبيرة جدا بحيث لا نستطيع عدها ويوجد من بينها سفن تشبه الجبال في علوها(385). ويمكن تصور الرعب والهلع الذي استولى على المدنيين نتيجة لهذا الخبر، وأهمية الأرمادا، هي أننا إذا نظرنا اليها من الجوانب فإنها لا تتشابه أبدا مع تلك التي كانت في الحملات السابقة...

ولكن الخليفة لم يترك مواطنيه يستسلمون لليأس. فقد ركب حصانه وطاف في المدينة الواهنة العزيمة (386) يشحذ هممهم ويشجعهم مذكرا اياهم بوصول بارباروس قريبا(387).

ثم جمع كل الرجال الأصحاء ووزع الجيوش المكونة من السكان على الأسوار وفي المواقع والمعاقل المحصنة. ولم يحدث في أي حال من الأحوال أن ملكا أظهر شجاعة أكثر من شجاعته وخبرته وحنكته التي يجب اظهارها في هذه المناسبة(388).

وهب سكان المدينة متشجعين بهدوئه وضماناته وأخذ كل واحد موقعه وامتلأت الأسوار بالرجال المسلحين بالبنادق والسيوف وبالرماح والحراب والأقواس وكذلك بالرايات الحربية من كل الألوان وهي ترفرف تحت السماء في فصل الخريف.

وتمركز الضباط والملازمون التابعون لحسن أغا في المواقع الرئيسية:

- حاج مامي يدافع عن باب عزون .
- القائد يوسف بمساعدة ثلاثة ضباط هم: سافير، أرسلان ورمضان مكلفون بباب الواد.
- مجموعة من ضباط البحرية تحت قيادة كوتسوك علي وهيديرا خيدر القائد العام للبحرية يحرسون باب البحرية.
- حسن أغا نفسه يحتفظ بالقلعة القريبة من باب الواد، بحيث يمكن للمدافع أن تضرب في البر والبحر في نفس الوقت.
- وأخيرا القائد حسن يدافع عن الساحة الواقعة بين القلعة والقصبة(389).
- وطوال اليوم التالي 20 أكتوبر كان المحاصرون المجتمعون فوق أسوارهم يشاهدون سفينة الارمادا الضخمة وهي تقطع الخليج ببطء متجهة إلى تامونفوست، حيث أرست هناك حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر.

وعلى ظهر الباخرة الامبراطورية يمكننا ان نميز من بين الجنود النظاميين والمدافع، عدد كبيرا من النساء الإسبانيات جئن هنا وكأنهن يأمرن بجائزة للفائز في التصفيات(390). وفجأة خلال عملية التحرك هذه سقطت مقصورة من الباخرة في البحر. هذه الإشارة تم تفسيرها فيما بعد من طرف سكان مدينة الجزائر بأنها فأل حسن (بشير)، حيث أعادت الثقة إلى نفوسهم وعرفوا بأنهم سينتصرون على عدوهم(391).

ومن جهة أخرى فإن الجو كان غائما والبحر هائجا وأمواجه متلاطمة، وخلال يومين فإن المخيمين كان يمكن رؤيتهم من جهة أو أخرى من الخليج الصغير.

وأرسل الجزائريون قاربين للمراقبة: ولكن تم القاء القبض على احدهما ولاذ الآخر بالفرار.

إن المرتفعات التي تسيطر على الخليج مغطاة بالفرسان الذين جاؤوا من سهل المتيجة ومن الريف والضواحي المحيطة بالمدينة والذين ينتظرون بقلق مثلهم مثل سكان المدينة القرار الذي سيتخذه العدو.

وكان شارل الخامس يبحث عن مكان أو موقع مناسب للنزول فيه. وجاء قارب يسير بمحاذاة الساحل لمعرفة النقطة الأكثر فائدة من أجل ارساء الباخرة وتهيئة السلاح(392)، حيث وجد المكان المناسب بالقرب من مصب واد الحراش، وتوجهت الأرمادا إلى ذلك المكان في فترة ما بعد الظهر من يوم الأحد الموافق لـ 23 أكتوبر حتى يباشر بالارساء قبل غروب الشمس.

ونزل الفرسان من كل مرتفعات، الساحل على الشاطئ وحاولوا اعتراض عملية تحريك الباخرة وإرسائها. لكن بنادقهم وسهامهم كانت غير كافية ضد الكرات الصغيرة التي تطلقها مدافع السفن، وتحتم عليهم الانسحاب فورا تاركين هذه الحملة العسكرية تنزل على اليابسة، وبدأت تزحف ببطء نحو المدينة مع حلول الظلام، وتقدم الجيش المسيحي مسافة ألف قدم(393) وخيموا في مكان يسمى الحامة.

واتفق المؤرخون الأوروبيون على اظهار حزنهم ورثائهم للتهاون وعدم اكتراث الإدارة الإسبانية التي لم تزود الجيش بالخيم والملابس الدافئة (394). ويحدث التخييم في حالات طبيعية مختصرة بينما سارع الامبراطور بإرسال رسول لحسن أغا يعرض عليه تبديل المدينة مقابل جائزة كبيرة جدا له وللأتراك(395)، وأجاب الخليفة بكبرياء وأنفة بل الأخذ بنصائح عدوه حماقة كبرى، ويتمنى بإرادة الله عزوجل أن يكسبه هذا العمل المكانة المرموقة والشهرة الأبدية(396).

وإذا كان شارل الخامس قد جهز حملته معتمدا على أمله في الخيانة فها هو الآن قد أخبر بذلك.

الليلة حالكة الظلام، والسماء مغطاة بالسحب والغيوم.

خرج سكان مدينة الجزائر بقيادة حاج باشا مستغلين الظلام الدامس واقتربوا من خيم الأعداء. وهاجموه حيث نشر هجومهم هذا البلبلة والاضطراب لأن المهاجمون لم يكونوا ينتظرون الانتقام السريع من عدوهم.

واستيقظ الامبراطور بهلع وهو يرتجف وقال متعجبا. هل هذا ما كنتم قد أخبرتموني به؟ بأن الجزائريين لا يتحملون الوقوف أمام هجماتنا؟(397). وقد انسحب القائد بعد هذه المناوشات دون خسارة.

- بدأ المسيحيون بالزحف يوم الاثنين 24 أكتوبر. وتقدم الجيش الضخم نحو المدينة، بحيث كان يبدو لأعين السكان وكأنه كتل من النمل الأسود يملأ السهل(398).

وسار الإسبان إلى الأمام، وكان الامبراطور بشرفه ونبله وارادته القوية يقود الحملة العسكرية التي تتكون من الألمان والإيطاليين والفرسان الذين يشكلون المؤخرة، وكان الجيش المسيحي محاطا بجحافل العرب الذين يقومون بمضايقتهم من كل الجهات(399).

ولفهم خطة الجيش الامبراطوري، يجب محاولة تصور طوبوغرافيا ضواحي مدينة الجزائر قبل أن تغير البناءات التي نعرفها من شكل الطبيعة.

يتشعب خطان من المرتفعات الرئيسية لهضبة الأبيار -الخط الأول ينفصل في أعلى واد بير طرارية وينخفض 240 متر تقريبا حيث صخور البحر في رأس سيدي الكتاني مكونة من بروزين أساسيين وسطحيتين هما حصن الامبراطور (كدية الصابون) وينخفض 216 متر والآخر هو الذي يحمل القصبة القديمة للمدينة وينخفض 120 مترا(400).

فمدينة الجزائر بنيت في القرن السادس عشر على نتوء صحري ويحيط المدينة من الجهتين مجموعة من الوديان التي تتجه نحو أعلى التل، وسيقيمون المواقع المعادية، الإيطاليون والفرسان الملطيون يحرسون الشاطئ في رأس تافورا. وتسلق الإسبان الجبل لتطويق المدينة على مقربة من الوادي، أين يجري الواد الصغير(401). بينما يقوم الامبرطور مع الجيش بنصب خيمته على هضبة مرتفعة (في كدية الصابون) التي تسيطر على المدينة بالقرب من مسجد صغير سمي سيدي يعقوب.

وفي نفس الوقت فإن كل السفن الشراعية الحربية والبواخر المسلحة ببعض المدافع تشكل خطأ دفاعيا أمام الجزء الجنوبي من المدينة وتبدأ في الحال باطلاق النار بحيث ترد عليها المدفعية دون أدنى خطأ من جهة أو أخرى(402).

كل شيء جاهز لشن الهجوم في اليوم التالي...

ولكن خلال الليل من 24 – 25 انفجرت العاصفة التي كانت كامنة منذ عدة أيام. وكل ما أمكنهم معرفته هو أن الأمطار الطوفانية التي سقطت أحيانا على مدينة الجزائر. ونفهم بسهولة ما عانى منه الجنود المهاجمون فورا.

وكان الجنود قد نزلوا دون أن يأخذوا حذرهم بأي نوع من الوقاية فلم يكن لديهم معاطف تحميهم من البرد ولا خيم يلجأون اليها هربا من الأمطار المتساقطة من السماء... وبسبب القلق والعذاب الذي انتابهم من العاصفة فقد شعروا بأنهم فقدوا شجاعتهم وقوتهم في نفس الوقت(403). وارتفعت أمواج البحر بشكل لا يصدق. ففي الخليج الصغير تقطعت مراسي السفن والبواخر. ودفعت هذه العاصفة الهوجاء الأسطول نحو الاتجاه المعاكس للشاطئ حيث تشققت السفن وغارت إلى الأعماق جارة معها الرجال والأدوات.

أما فيما يخص الجنود المحاصرين فقد استغلوا الفرصة التي نزلت عليهم من السماء... ليخرجوا من الحصار المضروب عليهم مستغلين بذلك نزول الأمطار، حيث قاموا بالانقضاض على الجناح الإيطالي والفرسان المالطيين في مواقعهم ومعاقلهم. وساعدهم في هذا الهجوم طبيعة الأرض،

وكذلك معرفتهم للأماكن وأسلحتهم التي يستعملونها وهي الأسهم والنبال والأقواس والتي كانت أكثر فعالية تحت هذه العاصفة من البارود والرصاص، خاصة طريقتهم في القتال التي تعتمد على السرعة والخفة، هاربين أمامنا وفي بعض الأحيان يقفون ليرمونا من بعيد بالأسهم والحجارة: ويقول فيليجينون ان هذا النوع من القتال كان جديدا علينا(404).

وقام كذلك الجنود المشاة باستفزاز العدو واستدراجه إلى حيث ارادوا: وباستعمال هذا النوع من القتال الذي يعتمد على الخديعة فإن جنودنا طاردوا العدو بتهور وبلا حذر خارج الصفوف حتى أسفل أسوار المدينة(405). وتحصن الجزائريون داخل الأبواب، بينما جهز المدافعون عن مدينة الجزائر الأسوار بالأسلحة وقذفوا كل ما لديهم من نبال وأسهم وحجارة على الإيطاليين الذين تملكهم الرعب والهلع فتفرقوا وهربوا(406). قال بانديني ممثل كومس دوميديسيس (COMS DE MEDECIS) في الحملة على مدينة الجزائر بقسوة وصرامة: "في 25 إكتور أساء كل الناس القيام بواجبهم لكن الإيطاليين كانوا أسوأ الجميع...(407).

صحيح إن الأمطار لم تتوقف عن الهطول والرياح شديدة وحماسة الجنود المهاجمين قد نقصت تدريجيا مع نقصان المقاومة.

إن الفرسان المالطيين ما زالوا في وضعية حسنة وأقوياء، لكن حسن أغا كان راكبا على ظهر حصانه محاطا بجنده حيث أسرع إلى اجبار الفرسان على التراجع ولاحقهم حتى الأسوار(408) ودخلوا في مضيق(409)، حيث هناك استطاع حسن أغا أن يذبح عددا كبيرا منهم. وهذا مما اضطر الامبرطور أن ترك موقعه الموجود على المرتفعات من أجل نجدة هذا الجناح من جيشه واستطاع أن يدحر سكان مدينة الجزائر حتى مدخل باب عزون.

وفي هذا الوقت كان جناحه الأيسر الذي يتألف من الاسبانيين مشغولا من جهة الساحل لايقاف تقدم العرب الذين هاجموهم من جهة الغرب.

غير أن العاصفة تضاعفت والأسطول الموجود في الخليج الصغير يعاني من أزمة كبيرة، حيث أن 150 سفينة من أحجام مختلفة قد تحطمت على الشاطئ أو غرقت على بعد قليل منه والتي تظهر لهم من خلال رؤوس صواريها التي لم تختف تماما تحت الماء(410).

كل البحارة الذين سلموا من الغرق قد تم أسرهم أو قتلهم من قبل العرب الذين كانوا يركبون خيولهم ويطوفون بها على طول الشاطئ وبالمقابل فإن الأسرى المسلمين الذين يعملون على ظهر السفينة الشراعية الحربية المسيحية، قد وجدوا الفرصة المناسبة للفرار والتخلص من الأسر، وفقدت المدفعية الكبيرة وكل الأجهزة والعتاد لأن القوارب التي حملت بالعتاد والمؤن والذخيرة قد غرقت وفي نفس الوقت اختفت ذخيرة ومؤونة الجيش مع السفن التي غرقت لأنه حتى ذلك الحين لم يتم تنزيل وإفراغ ما يكفي لقوت يومين أو ثلاثة أيام فقط.

ومن شدة المعركة فإن الجيوش الامبراطورية خافت وارتعدت وكانت منهمكة ومصابة بالجنون بسبب غرق سفنهم، حيث رأينا فجأة السفن التي بقيت سليمة ترفع أشرعتها وتلوذ بالهرب، هذا العمل أقلق القائد الإسباني "اندريا دوريا" وجعله يهتم بتأمين الحماية للامبراطور وإنقاذ ما يمكن ادراكه وخاصة المقاتلين الذين انهارت نفسياتهم بالكامل.

لقد انتهى اليوم تحت الأمطار الغزيرة التي تنهمر من السماء بينما كان كل مخيم يحصي خسائره والتي كانت ثقيلة جدا. فعاد الأمل الكبير من جديد إلى قلوب المحاصرين.

وفي اليوم التالي الأربعاء 26 وصلت رسالة من القائد أندريا دوريا إلى الامبراطور يشرح له فيها العمل الذي قام به والسهر واليقظة لإنقاذ الجيش قائلا: " سأنتظرك في تامنفوست: أسرع في المسير مع الجنود الذين معك للحاق ببقية الأسطول وارجع إلى مملكتك سالما(411). وأخيرا فقد فهم شارل الخامس سبب فشل مشروعه وأمر بطي الخيام.

وبدا الفرح ظاهرا بوضوح على الجزائريين الكامنين داخل أسوارهم لأنهم رأوا من فوق سطوحهم بداية تحركات انسحاب المسيحيين(412).

نزل الفرسان العرب والقبائل مزودين بالسهام والحجارة ليرافقوا سير الجيش المهزوم المتجه نحو واد الحراش تحت الأمطار الغزيرة التي لم تتوقف عن النزول.

وفي ليلة الخميس 27 خيم الجيش في العراء أمام النهر الذي زاد ارتفاعه من الأمطار بحيث لا يمكنهم اجتيازه أبدا.

وقد توجب عليهم ذبح خيولهم لتغذية الرجال الذين لم يبق لديهم ما يأكلونه.

وابتداء من اليوم التالي الجمعة 28، بدأ الامبراطور باستخراج صواري السفن التي غرقت وبقايا البواخر والقوارب التي تحطمت وتكسرت على الشاطئ لإعادة بنائها من جديد حتى يستعملها الجيش في عبور النهر، بينما قام الفرسان العرب الهجوم عليهم من الجهة الأخرى وقتلوا عددا كبيرا منهم ولم يتوقف القتل إلا بوصول جيش شارل الخامس من تاموتفوست(413).

خاتمة

الجزائر المحروسة

الخسارة كانت تامة: فقد خسر الامبراطور 150 سفينة وحوالي 10.000 رجل وكذلك كل فرسانه.

وقد حصل سكان مدينة الجزائر على كمية من السلاح بعد هزيمة الجيش المسيحي: حيث عمدوا خلال ذلك إلى انزال خمس سفن إلى البحر كانت متروكة على الشاطئ، واستطاعوا بواسطتها استرجاع 60 قطعة مدفعية من بينها 20 مدفعا من الحجم الكبير (414). واعتبر ذلك اليوم على الخصوص بداية الصعود الذي لا يقهر.

وفي غمرة هذا النصر الأسطوري حيث وقف الحظ إلى جانب شجاعتهم وعزيمتهم، فإن سكان مدينة الجزائر كانوا قد رأوا الحماية الربانية تنزل عليهم، بينما عم الفرح وراح كل واحد يشكر السماء بطريقته الخاصة (415). وانتشرت بين الناس شائعات وخرافات لا تحصى ولا تعد: ومنها انهم شاهدوا جامع سيدي بتكا مضاء في ليلة المعركة رغم ان هذا الأخير قد مات منذ عدة سنوات، كما بثوا أيضا شائعات عجيبة: هي ان والي دادا كان يتقدم في البحر ضاربا السفن بعصاه التي رفعت الأمواج إلى ارتفاعات مخيفة. كما قام سيدي قدور برمي مخزون الخزف والفخار في الماء واحدة واحدة والتي كانت مخزونة في مخازن على المياه، وقالوا بأنه مقابل كل صحن كان ينكسر كانت تغرق سفينة. ورغم ما رووه من أساطير وخرافات وقصص إلا أنهم لم يستطيعوا تصديق معجزة واحدة لأنها الأكثر اعجازا في كل ما قالوه وهي ان مدينة الجزائر قد هزمت اكبر جيش من جيوش المسيحيين.

فمن يستطيع أن يقهرها في المستقبل؟

إن مدينة الجزائر قد استحقت لقب المحروسة حيث ستواصل في المستقبل سعادتها وحظها الذي يحسدها عليه ويخاف منها الجميع وشيئا فشيئا فقد فرضت قوانينها وسيطرتها على البحر وسارت في طريق النمو والغنى حتى أصبحت قبل نهاية العصر المدينة الأكثر قوة من بين المدن الجديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط(416).

الهوامش

(1) العربي خلفون، في الجزائر أحداث رقم 1025 ص 39 من 6 إلى 12 جوان 1985.

(1) ابن خلدون "تاريخ البربر"ترجمة سلان الجزء الأول/ص 123-119.

وليون الإفريقي: "وصف افريقيا" (ترجمة ايبولاد) الجزء الأول ص 33.

(2) البكري: "وصف افريقيا الشمالية" ترجمة سلان صفحة 136.

(3) الإدريسي:مقالة ديلفوكس في المجلة الإفريقية XIX ص 509.

(4) مراكشي: في المجلة الافريقية 37 ص230

(5) الابداري: الجريدة الاسيوية1854 الجزء157 - 158.

(6) جاك بيرك: المغرب الداخلي XV-XIX ص 221.

(7) دبلفوكس: الجزائر -دراسة أثرية وطوبوغرافية في المجلة الإفريقية XIX ص 511-519.

(8) سيفيتاتيس أوربيس تيراروم : "صورة الجزائر" رقم 7 (بروم استأمب 59 الجزء2).

(9) ماس لاتري: معاهدات المسيحيين مع العصر الوسيط. ص 89.

(10) عطا الله دهينا: دول المغرب المسلمة في القرن XIII-XIV وXV

(11) باسكالي: تطور "الشوارع " في الوثائق الجزائرية 1955 ص175

(12) هاييدو وليون الافريقي الجزء2 ص 352 P cite.O

(13) بيربروفر في المجلة الافريقية XV ص 389.

(14) بيربروفر في المجلة الافريقية XV ص 389.

(15) دبلفوكس في المجلة الافريقية XIX ص 294.

(16) نفس المصدر السابق.

(17) جاك بيرك: "داخل المغرب" ص 208.

(18) شهادة أحد الشيوخ الجزائريين دبلفوكس في المجلة الافريقية XIX ص 426.

(19) جاك بيرك "داخل المغرب" ص 208.

(20) دبلفوكس في المجلة الافريقية XX ص 153 وXIV ص 172.

(21) دبلفوكس في المجلة الافريقية XVIII ص 514 XIV ص 174.

(22) هاييدو "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص 22.

(23) ابن حوقل "كتاب سورة الارض" ترجمة كراميرس ووايت ص 72 الجزء 1.

(24) وثائق جزائرية 1951 ص 219.

(25) هاييدو: الطوبوغرافيا في المجلة الافريقية XV ص 393.

(26) ليون الافريقي: وصف افريقيا.. الجزء2 ص 347.

(27) غرامونت: "تاريخ الجزائر" ص 43.

(28) بيزونيل سيتي عن الدكتور براهيمي في "مجلة التاريخ" 9 ص46.
ومجلة العالم الاسلامي جزء 1915 XXX ص416.

(29) جون مونلو: "ادول البربرية"، "مجموعة ماذا أعرف"؟ ص33.
(30) نفس المصدر السابق، ص43.
(31): ديلفوكس في المجلة الافريقية XX ص66.
(32): برونشويع "البرب الغربيين تحت حكم الحفصيين" الجزء ص401.
(33): ليسبيس: الجزائر، دراسة جغرافية وتاريخ تخطيط المدينة.
(34): المؤتمر العالمي الثاني لدراسة حول مؤلفي حوض البحر المتوسط الغربي. الجزء II ص 281.
(35): أوديل، الجزاذرية والتونسية -ص69.
(36): ايزنبيت: اليهود في الجزائر وتونس في عصر الاتراك -في المجلة الافريقية عام 1952 رقم 96 - 126.
(37): برونشويغ: البربر الشرقيين تحت حكم الحفصيين الجزء ص 401.
(38): ايزنبيت: O.P cite ص 131 - 132.
(39): هابيدو: الطبوغرافيا في المجلة الافريقية XIV ص494.
(40): مارسيز: ماضي الجزائر المسلمة في تاريخ ومؤرخوا الجزائر ص 141.
(41) فرناند بروديل: البحر المتوسط -ص18، الجزء II.
(42): اندري كلوت: سليمان العظيم.
(43): فرناند برودويل: "الاسبان في مدينة الجزائر" في تاريخ ومؤرخوا الجزائر" – ص231.
(44) مارمول: "افريقيا" الجزء الول ص86.
(45) كما أثبت ذلك بعد عدة سنوات أول فشل لعروج أمام قلعة البنيون.
(46) ميرسيين: "تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثاني ص 426.
(48) أرشيف سيموناكس 26 ماي 1511 نقله بلهاميس: "تاريخ مستغانم" ص61.
(49) هابيدو: "توبوغرافي" في المجلة الافريقية XIV ص415.
(50) بيربروغر: قلعة مدينة الجزائر (البنيون) ص16.
(51) ليسبيس: مدينة الجزائر: دراسة جغرافية وتاريخ خطيطها. ص110.
(52) ميرسيي: الفن المعماري الاسلامي في المغرب. ص447.
(53) زهرة النيرات: (ترجمة روسو) ص16.
(54) غرامونت: دراسات جزائرية. ص5.
(55) هابيدو: "من الاسر". ص212.
(56) ليون الافريقي: وصف افريقيا.. الجزء الثاني.ص348.
(57) ساندر رابخ ودنيس: "تأسيس الوصاية على مدينة الجزائر" الجزء الاول. ص221.
(58) ميرسيير: "تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثاني ص426.
(60) مارمول: "افريقيا" O.P Cite الجزء الاول ص222.
(61) ساندر رونج و دنتيس.

(62) ليون الافريقي OP. cit الجزء الثاني ص348·
(63) ديلفوكس في المجلة الافريقية XX ص 67·
(64) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص13·
(65) ساندر رانخ ودنيس: "تأسيس حكومة الوصاية على مدينة الجزائر" الجزء الأول ص 53·
(66) نفس المصدر السابق·
(67) ابن خلدون: "تاريخ البربر" ترجمة سلان الجزء الثاني ص (418)·
(68) المجلة الافريقية 1873 ص132، الجزء 17 روبين·
(69) النشرة الفصلية رقم 121· ص 1 و2·
(70) زهرة النيرات "ترجمة أفونس روسو" ص 14·
(71) هاييدو " تاريخ ملوك الجزئر" ص17·
(72) نفسالمصدر السابق·
(73) نفس المصدر السابق·
(74) زهرة النيرات ص15·
(75) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس حكومة الوصاية" ص64·
(76) هاييدو: "تاريخ مدينة الجزئر" ص23·
(77) ساندر رانج ودنيس "تأسيس حكومة الوصاية"الجزء الأول ص37·
(78) هاييو IP. cite ص19·
(79) ليوفن الافريقي: وصف افريقيا -الجزء الثاني ص345·
(80) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر" ص22·
(81) سالفاتور بونو "قرصان بربري" ص17·
(82) ميرسيي: "تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثالث ص16·
(83) بيرروغر: قلعة البنبون لمدينة الجزائر" ص20·
(85) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص20·
(86) المجلة الافريقية XII ص315·
(87) بيربروغر في المجلة الافريقية XV ص386·
(88) بيربروغر: قلعة البنيون لمدينة الجزائر ص31·
(89) بيربروغر: IP. CIT ص32·
(90) بيربروغر: رسالة نيكولاس الخامس المذكورة في قلعة الجزائر ص35·
(91) نفس المصدر السابق ص9 و35·
(92) زهرة النيرات - ترجمة ألفونس روسو- ص17·
(93) زهرة النيرات -ترجمة ألفونس روسو تحت عنوان أخبار حكومة الوصاية على مدينة الجزائر-ص17·
(94) بيربروغر: "قلعة مدينة الجزائر" ص 38-39·
(95) رسالة نيكولاس الخامس التي ذكرها بيربروغر في OP.cit ص44·

(96) نفس المصدر السابق ص44.
(97) نفس المصدر اسابق ص45.
(98) زهرة النيرات ص16.
(99) هاييدو "تاريخ مدنية الجزائر" ص22.
(100) نفسالمصدر السابق ص24.
(101) ليون الافريقي OP.cit الجزء II ص324 ووالليد في المجلة الافريقية رقم XVII ص357.
(102) عن هذه المشكلة قرأ بيربروغرفي في المجلة الافريقية ص25 وقلعة مدينة الجزائر ص58، واتليد في المجلة الافريقية XVII ص 353، هاييدو "تاريخ ملوك الجزائر" ص33.
(103) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص35، واتيلد في المجلة الافريقية XVII ص356.
(104) هاييدو: " تاريخ ملوك مدنية الجزائر" ص35.
(105) بوليفا: " جرجرة عبر التاريخ" ص124.
(106) ساندر رونج ودنيس: تأسيس حكومة الوصاية ص 189.
(107) ماسكاري: النشرة الفصلية رقم 121 ص10
(108) نفس المصدر السابق.
(109) مارمول: " -الجزء الثاني ص221.
(110) بوليفة OP. CIT ص125.
(111) هاييدو: "تاريخ ملوك مددينة الجزائر" ص35.
(112) زهرة النيرات: "سليمان العظيم" ص141.
(113) أندري كلوت: " سليمان العظيم" ص141.
(114) الموسوعة التركية، الجزء الاول ص324.
(115) أندري كلوت : "OP.cit" ص141.
(116) نفس المصدر ص391.
(118) سانر رانج ودنيس "تأسيس حكومة الوصاية" ص134.
(119) نفس المصدر السابق ص106.
(120) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس حكومة الوصاية" ص107.
(121) نفس المصدر السابق، الجزء الاول ص108.
(122) بيربروغر بواسطة لويز دوغومارا "فلسفة مدينة الجزائر" ص72.
(123) ساندر رانج ص109.
(124) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر؛ ص39.
(125) ساندر رانج ودنيس: OP.citص135 الجزء الول.
(126) مانلو " الدولة البربرية" ص57.
(128) ليون الافريقي OP.cit الجزء الثاني ص325.

(129) نفس المصدر السابق·
(130) ليسبيس OP. CIT ص118·
(131) ديلفوكس في المجلة الافريقية XVII ص345·
(132) ابربروغر: " العصر العسكري للقبائل الكبرى" ص62·
(133) بوليفة: "جرجرة عبر التاريخ" ص126·
(134) ميرسيي: "تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثالث ص26·
(135) بوليفة: OP.cit ص126·
(136) نفس المصدر السابق·
(137) ميرسيي: "تاريخ افريقيا الشمالية الجزء الثاني ص27·
(138) بيربروغر : " العصور العسكرية" ص74، بوليفة cit ص127· جوليان: "تاريخ فريقيا الجنوبية ص257 الجزء الثاني·
هرامونت: "تاريخ الجزائر تحت السيطرة التريكة" ص33·
(139) ساندر رانج ودنيس: OP.cit الجزء الاول ص198·
(140) نفس المصدر·
(141) بوليفة OP.cit ص147·
(142) هامار: "تاريخ الإمبراطورية العثمانية" الجزء الخامس ص240·
(143) جينيفو في النشرة الفصلية رقم 121 ص54· بوير في مجلة العامل الإسلامي رقم 8 - 1970· ص26·
(144) هرامونت: تاريخ مدينة الجزائر تحت السيطرة التركية ص33·
(146) ميرسيي OP.cit الجزء الثالث ص27·
(147) نفس المصدر السابق·
(148) بيربروغر: " العصور العسكرية للقبائل الكبرى" ص96·
(148) بيربروغر: "العصور العسكرية للقبائل الكبرى" ص96·
(149) نفس المصدر السابق·
(150) هاييدو: "الاشد" ص210·
(150) بلهاميس: "تاريخ مستغانم" ص69·
(151) لوبيز دو غومارا، نقله بيربروغر في "قلعة مدينة الجزائر"ص93·
(152) ساندر رانج ودنيس الجزء الاول ص222·
(153) هاييدو: "الأسر" ص210·
(154) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص42·
(155) ساندر رانج ودنيس OP.cit ص223·
(156) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص42·
(157)نفس المصدر السابق·
(158) ساندر رانج ودنيس OP.cit الجزء الاول ص223·
(159)هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر ص43·

(160) لوجيير دو تاسي: "تاريخ الدول البربرية" الجزء الاول ص62.
(161) رسالة بدرو دو غودوي حاكم وهران وجاسوس يهودي من مدنية الجزائر (أرشيف سيمونكاس) في المجلة الافريقية XIX ص163 و164.
(162) تحدث هاييدو عن 53 حندي وثلاث نساء.
(163) لبسبيس OP.cit ص3.
(164) = مدينة الجزائر ص3.
(165) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر ص36.
(166) سلفاتور بونو "قرصان بربري" ص3.
(167) مونلو "الدول البربرية" ص21.
(168) بروديل: "البحر الابيض المتوسط" الجزء الثاني ص195.
(169) نفس المصدر في 169 الجزء الثاني ص191.
(170) سلفاتور بونو عن برودويل OP.cit الجزء الثاني ص191.
(171) بروديل: " البحر الابيض المتوسط" الجزء الثاني ص195.
(172) نفس المصدر السابق الجزء الثاني ص206.
(173) نفس المصدر السابق الجزء الثاني ص194.
(174) بلهاميس: "تاريخ البحرية الجزائرية" ص144.
(175) مونلو " الدول البربرية" ص68.
(176) غرامونت: "دراسات جزائرية: القرصنة، العبودية.. الخ ص3.
(177) هاييدو: في المجلة الافريقية XV ص47.
(178) هاييدو: من الاسر ص96.
(179) غرامونت: دراسات جزائرية ص17.
(180)
(181)
(182) غرامونت OP.cit ص17.
(183) هاييدو "توبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص47.
(184) سيرفونتيس: "الحياة في مدينة الجزائر" في المجلة الإفريقية XXXV ص127.
(185) بلهاميسي: "تاريخ البحرية الجزائرية؛ ص102.
(186) غرامونت: "دراسات جزائرية" ص17.
(187) بلهاميسي: OP.cit ص93.
(188) غرامونت OP.cit ص63.
(189) بلهاميسي: OP.cit ص93.
(190) دان: "تاريخ البربر والقراصنة" ص305.
(191) نفس المصدر السابق ص303.
(192) ماسيرز: " أرض وشعب الجزائر" مرسيل عرموش 1956 ص266.
(193) بروديل: "البحر المتوسط" الجزء الثاني ص191.

(194) نفس المصدر ص212.
(195) مونلو: "الدولة البربرية" ص 90 -91.
(196) هاييدو: "طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص49.
(197) بونو: " قرصان بربري" ص9.
(198) المجلة التاريخية للجيش 1953 ص25.
(199) عطا الله دهينة "دول الغرب المسلمة" ص397.
(200) نفس المصدر السابق ص399.
(201) اراندا: "العلاقة بين الاسر والحرية" لسيور أرندا ص13.
(202) بونو: "I قرصان بربري" ص222.
(203) سيرفونتيس داراندا: قلعة الاولاد، المرتدين... الخ.
(204) بونو OP.cit ص223.
(205) لوجبير دو تاسي عن تيلار "الجزائر في الأدب: ص26.
(206) غرامونت "دراسات جزائرية" ص56.
(207) سيرفونتيس "الأسرى في دون كيشوت "الجزء الأول ص371.
(108) غرامونت OP.cit ص53.
(209) بونو: "I قرصان ربري ص53.
(210) سيرفونتيس: "الاسرى" في دون كيشوت الجزء الاول. ص371.
(211) غرامونت: "دراسات جزائرية" ص57.
(212) سيرفونتيس: " OP.cit ص371.
(213) تيوربي ديلوف: "افريقيا البربرية" ص114.
(214) سيرفونتيس: "الاسرى" في دون كيشوت : الجزء اول ص371
(215) علاقات اراندا ص229.
(216)
(217) هاييدو: "في الأسر ص107.
(218) بونو: ؛ قرصان بربري ص218.
(219) نفس المصدر السابق ص220.
(220) لوجير دوتاسي.
(221) تيوبير ديلوف: "افريقيا البربرية" ص149.
(122) غرامونت: "دراسات جزائرية" ص63.
(123) نفس المصدر السابق
(124) هاييدو: "في الاسرى ص215.
(225) سيرفونتيس: " الاسرى" في دون كيشوت الجزء الاول ص371.
(226) أراندا: " العلاقات..." ص20.
(227) غرامونت: "دراسات جزائرية" ص63.
(228) واحدة بواحدة.

(229) أراندا: "العلاقات..." ص15.
(230) سيرفونتيس: "الحياة في مدينة الجزائر" عن كازيناف، نشرة الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر 1924 ص122.
(231) سيرفونتيس: "الاسر" في دون كيشوت. الجزء الاول. ص379.
(232) بروديل: "البحر الابيض المتوسط" الجزء الثاني ص
(233) هاييدو: " من الاسر" ص232.
(234) غاسبارد: " بواسطة تيوبير ديلون في الفهرسة لنقدية...ص78/
(235) ساندر رانج ودنيس "تاسيس حكومة الوصاية لمدينة الجزائر" الجزء الاول ص291.
(236) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر" ص40 و"من الاسر" ص215.
(237) ساندر رانج ودنيس: OP.cit"" ص292.
(238) نفس المصدر السابق: ص301.
(239) غرامونت: "دراسات جزائرية" ص76.
(240) تيوبير ديلوف: "افريقيا البربرية... ص143.
(241) بروديل: "البحر الابيض المتوسط؛ الجزء الثاني ص195.
(242) تيوبير ديلوف: OP.cit ص 136.
(243) نفس المصدر السابق ص143.
(244) هاييدو: " من كتاب الاسر" ص187.
(245) تيوبير ديلوف: OP.cit ص 145.
(246) ناسخ الحرير والصوف بواسطة "بلهاميس في تاريخ البحرية" ص71.
(247) تيوبير ديلوف: "افريقيا البربرية؛ ص143.
(248) كارتيير بواسطة تيوبير ديلوف OP.cit ص 139.
(249) بوجير دوتاسي: بواسطة تيوبير ديلوف OP.cit ص 148.
(250) غرامونتك "دراسات جزائرية". ص76.
(251) مارسير.
(252) تيوبير ديلوف: "إفريقيا البربرية" ص143.
(253) هاييدو: "الطوبوغرافيا" في المجلة الإفريقية 496 XIV.
(255) جليان: "تاريخ إفريقيا الشمالية الجزء الثاني ص259.
(256) أندري كلوت: "سليمان العظيم" ص391.
(257) أرشيف سيمونكاس في المجلة الافريقية XVIII ص267.
(258) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر" ص47.
(259) نفس المصدر السابق ص48.
(260) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر؛ ص48.
(261) ليسبيس: " مدينة الجزائر" ص125.
(262) هاييدو: "طبوغرافيا" في المجلة الإفريقية XV ص207.

(263) غرامونت"دراسات جزائرية" ص78.
(264) تيوبير ديلوف: " إفريقيا البربرية" ص189.
(265) توماس الجندر بواسطة تيوبير ديلوف OP.cit ص 189.
(266) سيوبرا ص41.
(267) تيوبير ديلوف: "افريقيا البربرية" ص189.
(268) أوديل: "فن الصياغة الجزائرية والتونسية" ص189.
(269) هاييدو: "طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص90.
(270) هاييدو: "في المجلة الافريقية" XLI ص167.
(271) عطا الله دهينة: "دول الغرب الإسلامية" ص3.
(272) والتر: "المرأة في الإسلام" ص107.
(273) أراندا: "العلاقات" ص 62-63.
(274) سيوبرا: "ص41 ملاحظة 2. وملاحظة 194 حسب ترتيبنا.
(275) المجلة الإفريقية XIII ص25.
(276) سيرفونتيس: " الاسر " في دون كيشوت ص373.
(277) نفس المصدر. ص375.
(278) هاييدو: "طوبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص203 .
(279) نفس المصدر ص 109.
(280) نفس المصدر ص96.
(281) نفس المصدر ص 96.
(282) سيرفونتيس: "الأسر" في دون كيشوت. ص382.
(283) غرامونت: "دراسات جزائرية؛ ص60.
(284) هاييدوك ؛طبوغرافيا: في المجلة الافريقية XV ص 202.
(285) نفس المصدر السابق. ص203.
(286) المجلة الافريقية ص 298.
(287) هاييدو: " طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص 203
(288) نفس المصدر السابق ص 217.
(289) نفس المصدر السابق ص229.
(290) نفس المصدر السابق ص2232.
(291) هاييدو: "طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص49.
(292) نفس المصدر السابق ص312.
(293) لاووست: " الخلافة الاسلامية: ص 317.
(294) مايكل: " الإسلام وحضارته ص243.
(295) المجلة الإفريقية X ص 243.
(296) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس دولة وصاية الجزائر الجزء الأول. ص194.
(297) لاووست: " OP.cit ص 317.

(298) بيل: "الإسلام في بلاد البربر" في تاريخ مؤرخي الجزائر الجزء الاول- ص194-
(299) سيويرا ص21-
(300) دبيون وكوبلاني "الاخوة الدينية في الإسلام" ص113-
(301) شابويس "الذكرى المئوية للجزائر الفرنسية" ص34-
(302) في مكان المقام الحالي الذي بني سنة (1611 جون بيرك) داخل المغرب-- ص(209)
(303) رشيد بورويبة: "الاوصاف التذكارية لمساجد الجزائر" ص167-
(304) نفس المصدر ص72-
(305) أسبر: العملة التركية الصغيرة التي تعادل 1/125 ريال من الذهب-
(306) هايدو: "طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص 394-
(307) سيرفونتيس: "سجون مدينة الجزائر نقله كازيناف في نشرة الجمعية الجغرافية سنة 1924- ص112-
(308)
(309) لالي: "فرنسيو شمال افريقيا" ص38-
(310) سيرفونتيس الأسر" في دون كيشوت- الجزء الاول ص383-
(311) هايدو: "بواسطة كازيناف في النشرة الجغرافية 1924- ص112-
(312) لالي: "فرنسية افريقيا الشمالية" ص38-
(313) سيرفونتيس "الأسر" في دون كيشوت- الجزء الاول- ص 384-
وأرلندا: "العلاقات" ص55-
(314) هذه اللغة الإفرنجية ظلت تستعمل حتى سنة 1830-
(315) هايدو: "طوبوغرافيا؛ في المجلة الإفريقية 23 XV
(316) باسكالي "تطور الشارع" في الوثائق الجزائرية 1955 ص177-
(317) نفس المصدر ص178-
(318) باسكالي: "الشارع؛ في الوثائق الجزائرية 1955-
(319) هايدو يبالغ في وصف العرض عندما يذكر بأنه 10 أمتار
(320) نفس المصدر السابق في (319) ص188-
(321) أوديل: "الاخوة الجزائرية التونسية" ص70-
(322) أرشيف سيمونكاس: R A 21 ص84-
(323) المجلة الإفريقية XXV ص 8و9-
(324) هايدو: "طبوغرافيا" في المجلة الافريقية XV ص 318-
(325) غراموند: " دراسات جزائرية" ص65-
(326) هايدو: OP. cit ص221-
(327) غراموند: OP. cit ص65-
(328) أرلندا "العلاقات" ص236-
(329) [illegible] "الجزائر" في القرن XVIII ص259-

(330) هايدو: "طبوغرافيا" في المجلة الإفريقية XV ص 216.
(331) نفس المصدر ص420، في المجلة الإفريقية
(332) ليسبيس: "مدينة الجزائر" ص186.
(333) نفس المصدر السابق. ص186.
(334) هايدو: في المجلة الافريقية XLI ص 183.
(335) ليسبيس: "مدينة الجزائر" ص54.
336) مدينة الجزائر في القرن التاسع عشر "المركز الثقافي الجزائري" في باريس. ص62.
(337) مخطوطات المحكمة (MEHEKME) في المجلة الافريقية XXXV
(338) غزيل مارسيز بيفر: "تاريخ الجزائر" ص184.
(339) علي خوجة: القصبة، البناء والتخطيط. ص41.
(340) ماسيز "العمران الاسلامي الغربي" ص445.
(341) فرناند برودويل: "البحر الابيض امتوسط" الجزء ثاني ص195.
(342) هايدو: "تاريخ ملوك الجزائر" ص44.
(343) نفس المصدر السابق ص44.
(344) مرسييه: "تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثالث ص33. ساندر رونج ودونيس "تأسيس حكومة الجزائر" الجزء الاول. ص(245).
(345) رسالة القائد أوشو ديرسيلا الى شارل الخامس.أرشيف سيمونكاس 1533 في النشرة الإفريقية XIX ص271.
(346) هايدو: :تاريخ الملوك" ص52.
(347) أندرية كلوت: سليمان العظيم. ص142.
(348) اقائد أوشو ديرسيلا أرشيف سيمونكاس 1533 في النشرة الافريقية XIX ص271.
(349) هامار: " تاريخ الامبراطورية العثمانية" الجزء الخامس ص243.
(350) ساندر ودنيس: "تأسيس حكومة الجزائر" الجزء الاول ص34.
(351) ميرسيي: "تاريخ افريقيا؛ الجزء الثالث. ص34.
(352) فيرود: "دراسة تاريخية عن عمالة قسنطينة في المجلسة الافريقية XVIII ص135.
(353) نفس المصدر السابق.
(354) أندري كلوت: "سليمان العظيم" ص143.
(355) ميرسيي: "تاريخ افريقيا الشمالية" الجزء الثالث. ص42.
(356) أرشيف سيمونكاس (1533) في المجلة الافريقية XIX ص266.
(357) ميرسيي OP. CIT الجزء الثالث ص43.
(358) أرشيف سيمونكاس، 14، 15 أفريل 1535 في المجلة الافريقية XIX ص52.
(359) مولان: وثائق عربية مسجلة، ص20.

360) ساندر رانج: "دولة وصاية الجزائر" الجزء الثاني ص51.
(361)
(362)
363) أرشيف سيمونكاس في المجلة الافريقية XXI ص25.
(364) ساندر رانج ودنيس: " تأسيس حكومة الوصاية لمدينة الجزائر" الجزء 2. ص51.
(365) هاييدو: "تاريخ مدينة الجزائر" ص52.
(366) بير بروغر: في المجلة الافريقية IX ص379.
(367) فرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر" ص57.
(368) ميرسيي: " تاريخ افريقيا" الجزء الثالث ص57.
369) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر" 58.
(370) أرشيف سيمونكاس 1542 في المجلة الافريقية IX ص 383.
(371) = = مارس 1563 في المجلة الافريقية ص85.
(373) ديلفوكس في المجلة الافريقية XXI ص351.
(374) القصبة الحقيقية.
(375) بيربروغر: (جيرونيمو.. ص58).
376) أرشيف سيمونكاس 1533 في المجلة الافريقية XIX ص 266.
(377) مخطوطة المحكمة في امجلة الافريقية XXXV ص 181.
(378) نفس المصدر السابق.
(379) رسالة الكونت الكوديت الى شارل الخامس. أو 1536 في المجلة الافريقية XXI ص204.
(380) ملحق رقم (2).
(381) جوريان دو لاغرافييي: (قراصنة البربر) ص27.
(382) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر" ص58.
(383) غرامونت "تاريخ مدينة الجزائر " ص58.
(385) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس حكومة الوصاية في مدينة الجزائر؛ الجزء الثاني. ص54.
(386) هاييدو: "تاريخ ملوك مدينة الجزائر؛ ص62.
(388) هاييدو: " تاريخ ملوك الجزائر؛ ص62.
(389) مخطوطة المحكمة (MAHEKME) في المجلة الافريقية العدد XXXV ص179.
(390) هامار: "تاريخ الامبراطورية العثمانية" الجزء الخامس ص346.
(391) مخطوطة المحكمة.
(392) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس حكومة الوصاية في مدينة الجزائر" الجزء الثاني. ص276.

(393) فيليجدنون رواها ساندر رانج الجزء الثاني· ص 262·
(394) هامار: "تاريخ الامبراطورية العثمانية" الجزء الرابع· ص347 -رافونت في المجلة الإفريقية XXXIII
(395) هاييدو: " تاريخ ملوك الجزائر" ص 62 وساندر رانج الجزء الثاني ص56
(396) أنظر هامش (395)
(397) مخطوطات محكمة (MEHEKME).
(398) نفس المصدر
(399) غرامونت: "تاريخ مدينة الجزائر" ص59·
(400) ليبيس: مدية الجزائر· ص41·
(401) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس حكومة ال،صاية على مدينة الجزائر" الجزء الثاني·ص284·
(402) نفس المصدر السابق· ص295·
(404) فيليجينون بواسطة ساندر رانج في "تأسيس دولة الوصاية في الجزائر" الجزء· ص291·
(405) نفس المصدر السابق· ص291·
(406) رافونت في المجلة الافريقية 1939 XXXIII L ص304·
(407) نفس المصدر السابق· ص (309)
(408) هاييدو: "تاريخ الملوك" ص64·
(409) بالقرب من قصر العدالة الخالي·
(410) ساندر رانج ودنيس: "تأسيس دولة الوصاية على مدينة الجزائر" الجزء الثاني· ص305·
(411) مخطوطة المحكمة (MAHEKME)·
(412) ساندرج رانج ودنيس: "تأسيس حكومة الوصاية على مدينة الجزائر"· الجزء الثاني· ص313·
(413) مخطوطة المحكمة (MAHEKME)·
(414) أرشيف سيمونكاس: (ديسمبر 1541) في المجلة الفريقية عدد 21 - ص226·
(415) الطائفة اليهودية المشهورة في مدينة الجزائر حتى سنة 1962· هذا النصر عرف باسم أبو ريم الجزائر·
(416) برودويل: "البحر الأبيض المتوسط" الجزء الثاني ص227·

فهرسة
(بيبليوغرافيا)

عمروش: أرض وشعب الجزائر – الشركة الجزائرية للنشر – الجزائر 1955.

أراندا: معاملات الأسرى والحرية لسيور أراندا – بروكسل 1662.

ماسيت: وثائق اسلامية عن حصار الجزائر من قبل شارل الخامس في 1541 في النشرة الفصلية الجغرافية والأثرية لولاية وهران الجزء العاشر –سنة 1890.

البكري: وصف افريقيا الشمالية، ترجمة سلان –باريس 1965.

بيل: الإسلام عند البربر في "تاريخ ومؤرخو الجزائر" باريس 1930.

بلهاميسي: تاريخ البحرية الجزائرية ENAL 1983.

تاريخ مستغانم SNED 1982.

بيربروغر: قلعة الجزائر (البنيون) أو أصول الحكم التركي في الجزائر – مدينة الجزائر 1860)العصور العسكرية للقبائل الكبرى - الجزائر حصن 1857

جيرونيمو: شهداء الحصن خلال 24 ساعة)الجزائر حصن 1854.

بيرك: داخل المغرب (القرن (XV – XIX غاليمار 1978.

بونو: I قرصان بربري –توران 1964 (I (CORSARI BARBARESCHI

بوليفة: جرجرة عبر التاريخ – الجزائر 1925.

بورويبة: النقوش التذكارية لمساجد الجزائر – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1984.

برودويل: البحر الأبيض المتوسط والشعوب المتوسطية في عهد فيليب الثاني – مكتبة A كولين 1966 (جزئين).

الإسبان في الجزائر "تاريخ مؤرخو الجزائر باريس 1930.

بروتشفيك: "برابرة الشرق تحت حكم الحفصيين في نهاية القرن الخامس عشر – مكتبة أمريكا والشرق – باريس 1940 (ثلاثة أجزاء).
كاتلين لاموت برنارد: رحلة مملكتي الجزائر وتونس لافتداء الأسرى 1720.
كازيناف: عبودية العلماء في الجزائر – نشرة الجمعية الجغرافية الجزائرية 1924.
سيرفونتيس: الأسير – دون كيشوت المانش – ترجمة فياردوت منشورات غارنيي – باريس (جزئين).
الحياة في مدينة الجزائر –المجلة الإفريقية العدد 35.
شايويش: الذكرى المئوية للجزائر الفرنسية (تحت الاحتلال الفرنسي) منشورات كاهن (KAHN) ستراسبورغ 1930.
كلــوت: سليمان العظيم –منشورات فيارد 1983.
كـولان: وثائق من تسجيلات العرب والأتراك –ليروكس 1901.
دان: تاريخ البرب وقراصنته –باريس 1659.
ديفوكس: الجزائر/ دراسة أثرية وطبوغرافية عن هذه المدينة في العصور الرومانية، العربية والتركية – في المجلة الإفريقية 1875 – 1878.
النظام الديني للجزائر القديمة –المجلة الإفريقية الأجزاء VI – XIX
ديبونت وكوبلاني: الإخوة الدينية الإسلامية –الجزائر 1897.
دهينا (DHINA): دول الغرب المسلمة في القرون ما بين – XIV XIII والقرن XVI- ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1984.
ديوفورسك: الحياة اليومية في موانئ البحر المتوسط في العصر الوسيط باريس 1975.
ايزنبيت: (EISENBETH) اليهود في الجزائر وتونس في العصر التركي – المجلة الإفريقية 1952 رقم 96.
أوجليو: فن الصياغة الجزائرية والتونسية وتجارتها – جوردان الجزائر 1902.
فيشنيو: السلطنة ملوك الكوكو- البطاقة الدورية 121(1944)

فانون (FANAN) : مستخرجات غير مطبوعة خاصة بالمغرب- الجزائر 1924

غرامون: تاريخ مدينة الجزائر تحت السيادة التركية(1515-1830). ليروكس- باريس 1887. دراسات جزائرية: القرصنة العبودية، افتداء الأسرى في مدينة الجزائر 1885.
الغزوات: هل هي صيغة خير الدين؟ فيوفيف-1873.

غزيل-مارسيز، بيقر: تاريخ الجزائر – باريس 1929.

هامر بيورغ ستال: تاريخ الامبراطورية العثمانية من الأصول حتى أيامنا هذه- ترجمة J.J هيلرت. باريس 1835 (18 جزء).

هاييـــــدو: طوبوغرافيا والتاريخ العام لمدينة الجزائر- المجلة الإفريقية 1870-1871: تـاريخ ملـوك مدينـة الجزائـر-ترجمـة غرامـون جوردان الجزائر1881 من الأسير في مدينة الجزائر- ترجمة مولنيير فيول جوردان الجزائر 1911.
تاريخ ومؤرخوا الجزائر- آثار وتاريخ- باريس 1930.

هويـــاك: البرابرة-بير غر-لاقروات 1949.

ابن خلدون: تاريخ البربر-ترجمة سلان-باريس 1934(ثلاثة أجزاء).

ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ترجمة كرامارس ووايت، مجموعة اليونسكو 1964.

جوليـان: تـاريخ افريقيـا الـشمالية: تـونس-الجزائـر- المغـرب مـن الفتح العربي سنة 1830 -بايوت 1952(جزئين)

جوليان غرافيير: القراصنة البربر وبحرية سليمان-طون 1887.

لاكـــــي: فرنسي افريقيا الشمالية-مجموعة دراسات عليا- بورداس 1970.

لاووست: الانقسامات الإسلامية-SNED 1965.

لوجيير وتاسي: تاريخ مملكة مدينة الجزائر والوضعية الحالية لحكومتها وقواها البرية والبحرية-أمستردام 1725.

ليون الإفريقي: وصف افريقيا-ترجمة ابيور الد-باريس 1981(جزئين).
ليسبيوس: الجزائر: دراسة جغرافية وتاريخ المدن-باريس 1930.
مارسيوز: الفن المعماري الإسلامي في الغرب A.M.G
مارجون: افريقيا-ترجمة نيقولاس بيروت دابلانكور-باريس 1667.
ماس-لاتري: معاهدات السلام والتجارة المتعلقة بعلاقات المسيحيين مع عرب افريقيا الشمالية في العصر الوسيط-باريس 1966.
ميرسيير: تاريخ افريقيا الشمالية-ليروكس-باريس 1891 (ثلاثة أجزاء).
مايكـــل: الإسلام وحضارته-كوليس 1977.
موئــــلو: الدول البربرية-مجموعة "ماذا أعرف؟" P.U.F 1973.
باسكالي: تطور الشارع الإسلامي في الجزائر-وثائق جزائرية رقم 75 سنة 1955.
رينارد: البروفانسية- منشورات لوسارد 1920.
روتاليير: تاريخ مدينة الجزائر والقرصنة التركية في البحر الأبيض المتوسط ابتداء من القرن السادس عشر- لولان 1841 (جزئين).
روســـو: أخبار حكومة الوصاية لمدينة الجزائر-ترجمة مخطوطة بعنوان "زهرة النيرات" الجزائر 1841.
ساندر رونج ودنيس: تأسيس حكومة الوصاية في مدينة الجزائر.
اعادة نشر المنشورات لسنة 1937. بوسلامة تونس-(جزئين).
تيليارت: الجزائر في الأدب الفرنسي-باريس 1925.
تيوريت ديلوف: بيليوغرافيا نقد المغرب في الأدب الفرنسي 1532-1715 SNED 1976.
افريقيا البربرية في الأدب الفرنسي من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر. جنيف 1937.
فونيوري دو باراديس: تونس والجزائر في القرن الثامن عشر- سانداد 1983.
والتيــر: النساء في الإسلام - سندباد 1981.

المجلات والنشرات

- مجلة المغرب الإسلامي رقم 8-1970 .
- المجلة الإفريقية.
- الجريدة الأسبوعية.
- الوثائق الجزائرية 1951-1955 .
- مجلة العالم الإسلامي .
- مجلة تاريخ حضارة المغرب.
- قرارات المؤتمرات العالمية الثانية لدراسة ثقافات البحر الأبيض المتوسط الغربي SNED 1978 .
- النشرة الفصلية الجغرافية والأثرية لولاية وهران T.X 1953
- القصبة: البناء والتنظيم O.R.E.F-G.A.M 1985 .
- مدن الجزائر في القرن التاسع عشر- المركز الثقافي الجزائري في باريس 1984 .
- المجلة التاريخية للجيش 1953 .
- المجلة البحرية 1931.

ملحق رقم (1)
تاريخ الأحداث

1492: سقوط مملكة غرناطة.
1505: (أكتوبر) احتلال الإسبان لمرسى الكبير.
1509:(ماي) احتلال الإسبان لوهران.
1510:(6 جانفي) احتلال الإسبان لبجاية. (31 جانفي) سكان مدينة الجزائر وقعوا معاهدة مع الإسبان. تشييد قلعة الجزائر المسماة(بنيون) من قبل بترو نفارو.
1511:..........................
1512: عروج يهاجم بجاية حيث خسر ذراعه.
1513:..........................
1514 (أوت)فشل المحاولة الثانية لعروج أمام بجاية.
1515: موظفوا سفارة مدينة الجزائر في اسبانيا يحتجون ضد اغتصاب القلعة المسماة البنيون.
1516:(23 جانفي) موت فرديناند داراغون. وصول باربـاروس للجزائر. (12 أوت) مهاجمة القلعة(البنيون).
سبتمبر اغتيال سليم التومي. (30 سبتمبر) محاولة انزال اسبانية قام بها دييغوا روقيرا.
1517: (فصل الربيع) محاولة تمرد قام بها وجهاء وأعيان مدينة الجزائر. المتآمرون والمتواطئون قتلوا داخل المسجد.
احتلال القاهرة من قبل سليم الأول. تتويج شارل الخامس ملكا على اسبانيا. (جوان) احتلال مدينة تنس من قبل جيوش عروج التي تابعت زحفها على تلمسان .
1518:(ماي) طرد عروج من تلمسان وقتله من قبل الإسبان.
ارتداد بن القاضي. خير الدين أرسل مبعوثا إلى اسطنبول ليطلب حماية السلطان.(20أوت) محاولة انزال اسبانية بقيادة القائد هيغوا. احتلال مستغانم.
1519: (15ماي) خير الدين باشا تحت الحماية العثمانية.

ضابطه كارا حسن يطرد بن القاضي من الكوكو. احتل كارا حسن القل. رجع بن القاضي إلى الجزائر تحت حماية ملك تونس. هزيمة خير الدين في فليسة أم الليل.

1520: احتل ابن القاضي مدينة الجزائر. نفي خير الدين إلى جيجل. تحالف خير الدين مع عبد العزيز ملك لابيس.

احتلال القل. (21 سبتمبر) موت سليم الأول(30 سبتمبر) تسليم سليمان السلطة.

1521: خير الدين يقهر مدينة قسنطينة.

1522: خير الدين يقهر مدينة عنابة.

1523: حكم بن القاضي مدينة الجزائر.

1524:.....................

1525: هزيمة ابن القاضي من قبل خير الدين بمساعدة عبدالعزيز منطقة بني عيشه (الثنية). موت ابن القاضي.

1526: استرجع خير الدين مدينة الجزائر وتابع القتال ضد الإخوة ابن القاضي. خير الدين يقهر مستغانم.

1527:.......................................

1528:.......................................

1529: (6 ماي) بداية العمليات ضد قلعة الجزائر(البنيون) (27 ماي) سقوط القلعة.

1530:..................................

1531: محاولة انزال قام بها اندريا دوريا في شرشال.(ديسمبر) محاولة تمرد العبيد(دون بورتوندو).

1532: بناء الرصيف والميناء

1533: استدعاء خير الدين إلى استانبول. عهد حسن أغا.

1534:(أفريل) عين خير الدين بيلار باي مدينة الجزائر.

حصن حسن أغا الميناء.(أوت) خير الدين استولى على تونس.

1535:(جويلية) استرجع شارل الخامس مدينة تونس. انسحاب خير الدين إلى مدينة الجزائر. في نهاية العام غادر خير الدين الجزائر نهائيا.

1536: اشاعة تتعلق بهجوم اسباني، سكان المدينة بدأوا بمغادرتها. بعد

الأمطار التي اجتاحت قرطبة تهدم السور المحيط بها من ثلاث أماكن مختلفة. حسن أغا استمر في تحصين الاستحكامات(الحصون).

1537:..............................

1538:..............................

1539: أول تحرير للعبيد بواسطة الآباء الثالوثين(يؤمنون بالثالوث الاقدس) لويس سويتير وجاك فيترون).

1541: (26 نوفمبر) محاولة حملة شارل الخامس وفشلها.(نوفمبر) عاصفة تحرت نصف الأرصفة والسفن البحرية في الميناء.

ملحق رقم 2

جدول مقارنة المعلومات المعطاة من طرف عدة مؤلفين يتعلق بهجوم شارل الخامس (1541)

SANDRE RANG ساندر رانغ	JULIEN DE LA GRAVIERE جوليان لاغرافيير	ARCHIVE SIMANCAS سيمونكاس	CH.A JULIEN جوليان	MAHKEM محكمة	HAEDO هايدو	GHAZAOUET غزوات	GRAMONT غرامونت	VILEGAINON فيليجيلون	HAMMER هامر
الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية
65 سفينة حربية 451 سفينة 516 23800 بحار	65 سفينة حربية 451 سفينة 516 سفينة 24000 بحار		516 سفينة شراعية 12330 بحار 24000 جندي 36300 جندي	90000 جندي	500 سفينة شراعية	450-400 سفينة شراعية	451 سفينة 519 سفينة صغيرة 23900 جندي 1233 بحار 12330	65 سفينة حربية 7000 اسباني 6000 ألماني 6000 إيطالي 13000 آخرين 400 مالطي 400 مالطي	74 سفينة حربية 200 سفينة 274 سفينة صغيرة 22000 مقاتل 1000 فارس 400 فارس مالطي
36230 رجل	36000 رجل		36330 رجل			50000 رجل	36230 رجل	26400 رجل	23400 رجل
جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية
	800 تركي 5000 مغربي	2000 تركي و2600 من المتطوعات والولايات	-	-	3000 تركي خليط من الأندلسيين والمغاربة	-	800 تركي 5000 مغربي	800 تركي 5000 مغربي	500 فارس بعض الآلاف من العرب

هذا الكتاب

يبين الاضطرابات التي عانت منها مدينة الجزائر، كبقية أقطار شمال إفريقيا سقوط الأندلس: من عدم الاستقرار الداخلي والهجمات الخارجية الاسبانية البرتغالية والفرنسية.

ـ استغل حاكم مدينة الجزائر حسن أغا الظروف الداخلية، شبه المستقرة، ظروف القرصنة كي يدعم سلطته ويتحكم في زمام أمور مدينته ويحول قانونها عها من مدينة محلية محدودة الأثر منغلقة على نفسها إلى دولة ذات بعد ليمي تلعب دورا فاعلا في تطور الأحداث السياسية والاقتصادية في حوض البحر ط خلال الفترة 1510 – 1541.